حسن نور

الهـامـوش

قصص

الكتـــاب : الهاموش (قصص)
المـؤلـــف : حســـن نـــور
تاريخ النشر : ٢٠٠٣ م
النـــاشــر : المـؤلـــف
مطبوعـــات الـفـجـــر
المـطـبـعـــة : النسر الذهبي

الإهـــداء

إلى رواد وأصدقاء جماعة الفجر الأدبية :

د. يسري العــزب ، أ. عبد العال الحمامصي

أ. محمد السيد عيـد ، أ. محمد مستجـــــاب

أ. إدريـــس علي

من أنــا ... مــن أنــت .. ؟!

قلت لها وأكياس الرمل تحت أجفاني تثقلها : إبقي صحيني م. النجمة عشان أروح أقبض المعاش.

سألتني مستنكرة : هو انت مش قلت لي قبل كده إن أولاد الحلال عرفوك وبيقدروا شيخوختك وبيقدموك عليهم في الطابور . . ؟ طب إيه اللي حصل . . ؟

أجبت متثائباً : سمعت يا ستي إنهم جابوا موظف جديد، وما اعرفش بقى حيكون بني آدم زي اللي نقلوه واللا حيكون صفته إيه . . الله أعلم.

– خلاص يا اخويا . . أول ما الأدان يقول الله أكبر تلاقيني باقول لك :

– اصحى يابوسيد .

– أيوه يابهية .

- اصحى يا اخويا عشان تلحق أول الطابور .

- هوه أنا لحقت . . ؟

شفطت بقين الشاي ولبست الجلابية البيضاء السكروته، وغطيت رأسي بالطاقية الشبيكه، وخرجت إلى الطريق متوكئا على عصاي . . أتحسس بها الطريق، ثم أتبعها قدمي حتى لا أصطدم بنتوء أو اتكعبل في دحديره . . واحدة واحدة . . حسبت أني بلغت مقصدي، فمكتب البريد على مرمى البصر،

حاسب يا حاج

كان الصوت قويا حتى كاد يخرق طبلتي أذني، بسرعة امتدت ذراعاه القويتان كمدراه . . التقطتني قبل أن أهوي إلى حفرة بعيدة القرار .

- يا ساتر يا رب

- أنا مش عارف إيه الحفر دي كلها . .

- الحمد لله .. قدر ولطف .

نفضت جلبابي من أكوام الأتربة التي علقت به ..

تناهى إليّ صوتها : آجي معاك يا خويا أوصلك .. ؟

قلت لها : ما أنا كل مرة باروح لوحدي .. اشمعنى يعني المرة دي .. ؟!

- لأنك المرة دي رايح والدنيا لسه ضلمه كحل .

خُد يا حاج اشرب بقّين الميه دول ..

ومد لي يده بكوب ماء بَرَّد جوفي الصادي ..

شكرا يا بني ..

حمد الله على سلامتك .

الحمد لله .. والله الدنيا لسه بخير .

***

كان الطابور قصيرا وقت أن وصلت المكتب . . أصر الواقفون أن أتقدمهم . . ساعة . . ساعتين والأفندية يرتعون بالداخل . . يتحدثون . . يتضاحكون . . يأكلون ويشربون الشاي . . كلّت قدماي من طول الوقوف فاستندت بكوعي إلى إفريز الرخام، . . كل شيء مترب حتى الهواء في فضاء المكتب . . امتلأت به رئتاي وفتحتا أنفي . . رحت أسعل فانتفخت عروق رقبتي وازرقّت . . صدري أعطبته رطوبة الحجرة الأرضية التي نسكنها منذ زمن بعيد، ودخان المسبك ومصنع البلاستيك في البيت المجاور . . أرسلنا شكوانا للمسئولين فوعدونا خيرا، ولما صدر قرار بنقلهما جرى صاحباهما وأبطلا القرار، ثم قعدا على باب الحارة، يخرجون ألسنتهم لنا . . ناس جبله، بالضبط مثل موظف التأمينات الذي كُلف بتسوية معاشي . . سألته وأنا أُسلمه خلو الطرف :

حسبت لي المعاش يا بني . . ؟

كركع ضاحكا وهو يزيح دفترا كبيرا من أمامه ، ثم نظرني قائلا:

طبعا يا حاج . . أمال . . ما احسبوش إزاي يعني .

- هاه . . طمني . . طلع كام . . ؟

- لا اطمن.

- يعني كام كده . . ؟

- حاجة بتاعة ألف . . ألفين . . تلاته .

- إيه . . بتقول إيه . . ألفين تلاته . .

أدرك سُخف هزره ، وخاف من مسئولية موتي من فرح مفاجئ لا يتحمله قلبي فأسرع قائلا : قصدي تلاته آلاف قرش يا حاج .

نظرته قرفاً وأوليته ظهري .

* * *

أزاح الموظف قطعة الخشب الأبلكاج التي يسد بها فتحة الشباك، وجدتني فرحاً ، أمد يدى له ببطاقتي العائلية . . نظرني معقود الحاجبين، وقد مط شفته السفلى قرفا، ثم زعق فيَّ قائلا : فيه إيه يا حاج ؟؟ ؟! إحنا لسه ما بدأناش شغل . . ثم يا أخي مين طلب منك البطاقة . . ؟ سمعت حد نده إسمك . . ؟

– لكنك فتحت الشباك .

– خلاص يا سيدي نقفله . . ولا تزعل .

– أبوه بس الساعة بقت تسعة ونص .

– تسعة والا عشرة . . انت حتحاكمنا . . طب وادي الشباك آهوه .

ارتفع اللغط من حولي ومن ورائي وكثر . . كل واحد بكلمه . .

– يعني كان لازم يا عم سيد ترد عليه .

- تلاقيه جاي م. البيت تعبان.

- أكيد عكننت عليه تمثلية السهرة.

- ربنا يكون ف يعونه .

- واحد غيره ماكانش جه الشغل من أصله.

تنتقل عيناي بين وجوههم .. آه يا أفاقين يا ولاد الكلاب .. دا مش ناقص اللا تهتفوا له وتقولوا له .. بالنار والحديد نفديك يا سيادة الموظف الجديد ..

لماذا كل هذا النفاق ..؟ ليتعطف عليكم ويصرف لكم المعاش ؟

ألا تعلمون أنه يعرض نفسه للسجن لو لم يفعل..؟ فقط اعلنوا غضبكم عليه وسترون النتيجة فورا .. لا .. أنا أعلم أنكم لن تفعلوا، فقد عشش الجبن حشاياكم .

أحسست بغيظ وفوران في الدم، وبدافع قوي أن أرد ذلك المغرور إلى صوابه، فماذا أفعل . . ؟ وقبل أن تأتيني الإجابة على تساؤلي سمعت صوتا يأتيني من ورائي : تعالى يا حاج . . الشباك انفتح .

استندت على ظهر المقعد، مدت إليه البطاقة . . نظرني مليا ثم راح ينقل عينيه بين وجهي والصورة . .

- يا ااه . . تلاته وثمانين سنه . . لا . . مش ممكن تكون انت.

قلت له مؤكدا . . لأ . . أنا . . بشحمه ولحمه . . سيد المصري . . مواليد ١٩٠٠ .

- إنت . . ؟!

- الله . . إنت مش مصدق ليه . . ؟

- مستحيل .

- عيب تكدب واحد قد أبوك .

- الشغل ما يعرفش أبويا يا سيدي ولا أمي.

قالها وهو يعيد إليّ البطاقة : خد .. البطاقة دي بياناتها ممسوحة .. ما فيهاش حاجة واضحة .

(آ آه .. أنا كنت حاسس إنه حيترازل عليّ عشان رديت عليه وكشفته قدام الجمهور)

أخرجت من جيبي الباسبور ؛ وقلت في نفسي: كيدك مردود لنحرك إن شاء الله؛ مددته نحوه قائلا : طب خد آهو .. لسه جديد وبياناته واضحة زي الشمس .

- باسبور إيه يا حاج .. إنت شايفني قاعد في المطار .. ؟

- الباسبور دا وثيقة رسمية زي البطاقة.

- بس احنا مابنتعاملش بيه.

همس أحد الواقفين ورائي : الظاهر إنه بياكل.

قال آخر : نعكّمه بس يخلص.

الراجل سيد مش عاوز يفهم.

قال لي الموظف لما رآني متبنا أمامه : وريني كده البطاقة.

قال الذي يقف ورائي : آهي الفرصة جاتك لغاية عندك.

حملق فيها وحملق ، ثم سألني : اسمك إيه . . ؟

- عندك في البطاقة.

- إنت سيد المصري . . ؟

- طبعا أنا .

- بس إنت ما تديش ستّين سنه.

- الله . . إنت بتتعامل بالشكل واللا بالبيانات اللي قدامك .

تململ الواقفون في الطابور وبدأوا يلغطون .

- ياللا بقى يا عم . .

- ما تخلص عشان نخلص احنا كمان .

- دا احنا م. النجمة يا أستاذ .

ردهم واحد من إياهم قائلا : حرام عليكو يا ناس . . يعني هوه حيقطع نفسه.

قال لي الموظف وهو يعيد إليّ البطاقة : ماهو أي واحد يقدر يجيب بطاقة مسروقة ويقول لي أنا فلان، ويصرف بيها .

- بس أنا باصرف بالبطاقة دي من يوم ما تحلت ع. المعاش.

- دا مش شغلي بقى.

- والحل . . ؟

- تجيب شهادة إدارية ، ممضيه من اتنين موظفين ومختومه بختم النسر إنك حي تُرزق.

زعقت غضبا . . صرخت . . يا ناس . . ياهوه . . بقى دا معقول . . أجيب شهادة بأني حي أرزق . . لا حول ولا قوة إلا بالله . . طب والبطاقة . . والباسبور . . مش الحكومة اللي

عاملاهم . . ؟ طب ما كل واحد واقف في الطابور معاه بطاقة ، يكون مزورها راخر واللا إيه . . ؟ !

قال الشخص إياه : لا لا يا عم سيد . . إحنا غير . . إحنا حنعرف نخلص معاه .

انسللت خارجا إلى الطريق والدم يغلي في رأسي . . وقفت تحت شجرة لما أحسست بأن قلبي سيتوقف . .

تسرب إلى أذني صوته بطلبه الغريب : هات شهادة إدارية بإنك حي ترزق .

رأيت رجلا يُقبل نحوي . . لما رأى حيرتي مرسومة في عيني سألني عن السبب . . سألته بدوري : إنت مين . . ؟

- عبد الغني سلطان .

- متأكد . . ؟ معاك بطاقة . . ؟

ثم قلت متداركا . . لا لا . . بطاقة إيه . . معاك شهـــادة

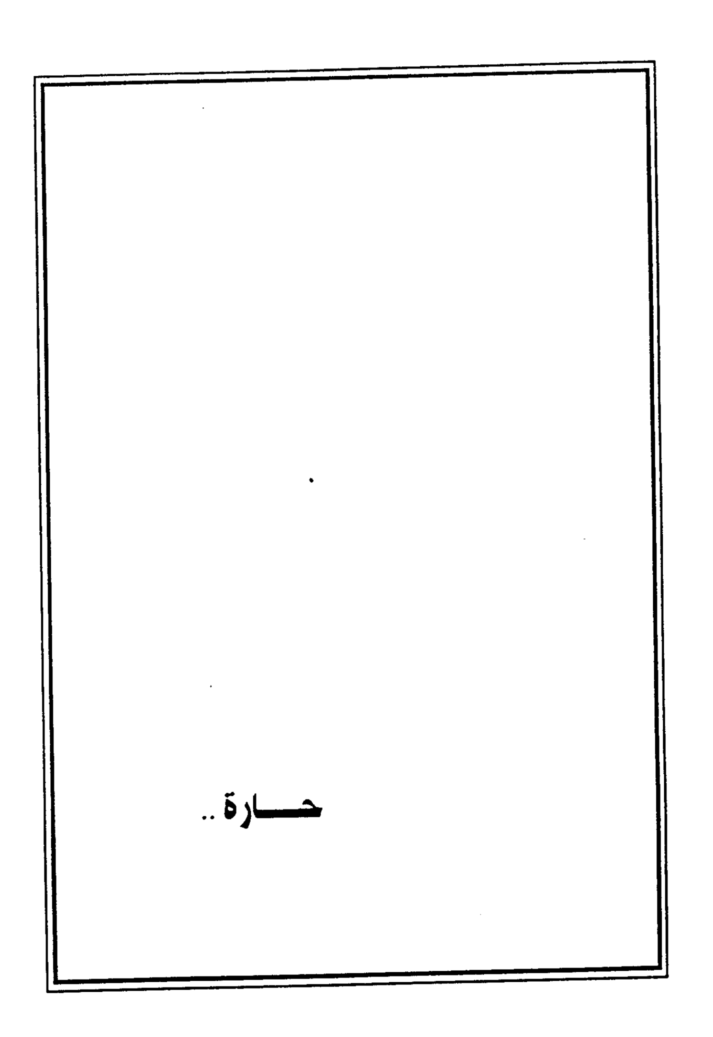
إدارية بأنك حي ترزق . . ؟

نظرني مليا راح يتمتم مضطربا : يا ساتر يا رب . . الظاهر إن الراجل كبر وبدأ يخرف .

قال آخر كان قد وقف جوارنا: مش هوه وحده . . دا كلنا والله . . صدقني . . كلنا، ولو ماكانش النهارده حيكون بكره، أو بالكثير قوي بعد بكره.

وابتعدا وتركاني أتحسس الطريق بعصاي، رغم أن قرص الشمس كان يتوسط قبة السمـــاء .

فبراير ١٩٨٦



حــــارة ..

في نفس اللحظة التي تعودت فيها أن أصحو من نومي صحوت، جريت إلى دورة المياه المشتركة لأفرغ ما تجمع في مثانتي من بول طوال ساعات النوم، ما أن انتهي من ذلك حتى أشعر أنني صرت خفيفا كريشة طائر صغير تمايس مع نسمات الصبح النديه.

أعود إلى حجرتي التي مللت جدرانها التي أكلتها الرطوبة، وشقوقها الطولية والعرضية، ومسامير سقفها الخشبية .. تتقافز عيناي في غبش الفجر في أرجائها باحثة عن براد الشاي الذي سوّده هباب وابور الغاز، ألمحه منزويا في أحد أركانها فأقفز نحوه فرحا، أملؤه لمنتصفه ماءً، الموقد يصدر وشيشا هادئا .. أزاح الصمت الجاثم على صدر الغرفة .. أشعر بالراحة .. وضعت فوقه البراد، خف الوشيش ، وهمد الضوء الأحمر المشرب بالأزرق ..

أرجع ثانية إلى دورة المياه قبل أن يصحى سكان الدور .. أغلق الباب .. أخلع ثيابي وأروح أشاهد عربي قبل أن تغمرني مياه الدش الباردة .. حُرمت من هذه المشاهدة منذ أن انتزعوني من قريتي صغيرا وألقوا بي في أتون المدينة المزدحمة لأزاول عملا .. أي عمل أتقوت من أجره وأخواتي البنات بعد أن أصر أبي على الرحيل مبكرا .. كنت أجري نحو الترعة البعيدة، وعند حافتها احتمي بساق شجرة الجميز القديمة .. أستند إليها .. وأخلع ملابسي فأصير بلبوصا، أظل واقفا زمنا .. أتحسس جسدي قبل أن ألقي بنفسي إلى المياه الضحلة .. يا اااه .. أيام .. كم أود أن أخرج هكذا؛ وقطرات الماء تتساقط من جسدي؛ إلى حجرتي أو إلى حيث أشاء .. هل أستطيع ..؟

- لا لا .. عيب .

- عيب عيب عيب .. زرعوا فينا الجبن والخنوع والموافقة

على كل ما يقال، وعدم الجهر بما نؤمن إذا لم يكن على هوى الآخرين .. حتى مجرد الخروج إلى الطريق حاملاً لافتتي، أضمنها رأيي حرمتوني منه .. عدوي .. قاتل أخي يجيء إلى أرضي، يسير فوقها مختالا ولا أستطيع أن أعلن رفضي لمجيئه .

- لخوفنا عليك من الأحكام العرفية.

- دعونا ولا تخافوا، فلن يمكنهم حبس الشعب كله.

انهمرت المياه الباردة على رأسي، كتفي، جسدي .. دغدغت حواسي .. أنعشتني.

ياللا ياللي جوه ، عاوزين نروح أشغالنا .

ارتديت ملابسي على بلل جسدي .. هرولت إلى حجرتي .. انتبهت إلى وقوقة الماء فوق النار .. لقمته بحبات الشاي، فتلون بالسواد .. بين كفي احتويت الكوب فسرى فيهما دفء لذيذ .. خطوت إلى الشرفة المطلة على الحارة التي تخلصت لتوها

من رقدة الليل القصير.

يا فتاح يا عليم .. متى تستيقظ هذه العجوز .. صاحبة البيت .. بل متى تنام ..؟ كنت أظنني آخر من ينام في الحارة حتى شق صوتها فضاء الصمت الليلي وخرم أذنيَّ .. إعدلي راسك يا مقصوفة الرقبة وبطلي تشخري زي الجاموسة.

طول النهار تشخط وتنطر في البنت الغلبانه مرات ابنها الغائب أبدا في عمله، والبنت مقطوعة من شجرة .. مسكينة يا فردوس، يا أجمل من رأت عيني .. تعالى إلى دفء حضني لتعيشي فردوسك الذي تستحقينه .

- يا بت عاوزه اتفرج ع. الفيلم، مش سامعه حاجة من شخيرك.

عباس العتر جاري في نفس الطابق يعمل في أحد المحال في وسط البلد ، يبدأ عمله في التاسعة ، لكنه اضطر أن يغادر

مسكه قبل أن تستيقظ صاحبته حتى لا تزنقه بسؤاله عن الإيجار .. نزل الدرج دون أن تلامسه قدماه .. أطل بطرف عينه من طرف الباب ، رآها تفترش الأرض قبالته فلبسه الزعر، قبل أن يرتد راجعا أمسكه صوتها من تلابيبه، فغرق في عرقه ..

إيه يا سي عباس يا عتر .. إيه اللي رجعك يا عيني ..

صاحب الشغل ما قبضكش .. طب وماله .. ولا يهمك يا عبس ..

آهو كل يوم تأخير بفوايده.

دس الرجل عينيه بين دفتي حذائه وهرول مجتازا الحارة، والسؤال يطن في أذنيه : إيه .. كل يوم بفوايده .. يعني إيه .. يخرب بيتك .. هو كل حاجة بيسعها كرشك ..؟ حتى الربا ..؟!

شيعته عيناها حتى ابتلعته الدروب، ثم أفلتت دجاجاتها من

وراء قضبان أقفاصها الجريد . . تبعثرت في أرجاء الحارة، غارسة أعينها في أرضيتها، لاقطة بمناقيرها ما تلقاه من خُشاشها، ومأمأة عنزاتها تملأ فضاء الحارة، وهي تلتهم أعواد البرسيم الذي يلقيه إليها بائعه صباح كل يوم اتقاء لشر صاحبتها التي تنبط في مكانها منذ طلوع النهار حتى مجيء الليل . . ينظرها فيتمتم بكلمات تخرج بالكاد من طرف لسانه :

صباح الفل يا أجدع خاله في الدنيا . . نهارك قشطه (زفت) إن شاء الله .

تسلط عليه نظراتها الغضبى وهي ترده قائلة : نهارك زي وشك يابن أمك . . بقى مالقتش غير الحزمة المسلولة دي ياواد . . ؟ طب امشي انجر وارجع من مطرح ما جيت .

أعوذ بالله منك ومن يوم ماجيتي فيه للحارة، ومن فراخك ومعيزك يابنت ستين كلب .

بتبرطم بتقول إيه ياواد . . ؟

قال وهو يسحب علوا من فوق أكوام البرسيم المحطوطة على عربته ويضعه بين يديها : يا سلام . . دا انت تأمري يا خاله . . يعني جيتي ف. جمل . . دا انت تطلبي العربية كلها أديهالك.

(آه يا بنت الكلب يا أكّالة السُحت . . طب والله والله بكره لجايب لك معايا الكرباج السوداني بعد ما أنقعه طول الليل في الزيت واشوي بيه بدنك، والله ما اخلي حتّه فيه إلا وأكون سلخه، عشان تبقي عبره لغيرك) .

ما كان م. الأول يابن أمك .

نظرها بجانب عينه، بينما كان يجر حماره وهو يزعق فيه : حاااا يا شرموط . . الكيل طفح منك ومن أعمالك السوده ، ووالله لو ما تعدلت لاخلص منك النهارده قبل بكره.

منعم العربجي يرى ويسمع كل يوم ما يكون بين بـائع البرســيم

والعجوز فيحس بالغيظ يهري أمعاءه، فيحدث نفسه . . دا يرضي ربنا . . طب ارفض . . احتج . . زعق تلاقينا كلنا معاك . . لكن تخنس وتبقى جبله بالشكل ده . . ليه . . خايف منها ليه . . ؟ دي حتى لا راحت ولا جت، ولا وراها ولا قدامها . . خايف من إيه . . ؟ مش عارف . . الظاهر إننا كلنا اتربينا ع. الخوف . . زرعوه فينا . .

ثم زعق على بائع البرسيم وأمره أن يلقي أمام حصانه علوين ويضع فوق العربة عشرا ونقده جنيها وهو يقول بصوت تعمد أن يكون عاليا . . نهارك أبيض . . ربنا يغنيها بالحلال ويبعدنا عن الحرام . .

راح بائع البرسيم يقبل الجنيه مرة ويلامسه جبينه مرة وهو يقول لمنعم . . استفتاحك قشطة يا راجل يا مجدع، ثم دس الجنيه في جيبه.

علق منعم عربشي عربته على جانبي حصانه، ورفع جوال التبن من أمامه وألقى به فوق العربة، ثم اعتلى مقدمتها والمقود في شماله والقمشة في يمينه .. يضرب بها الهواء فتضرب حوافر الحصان أرضية الحارة الحجرية في تتابع سريع، يلاحقه صوت زوجته داعيا:

مع السلامة يا اخويا .. يرزقك من حلاله ويكفيك شر خلقه ..

تصحو الحارة على أصوات الباعة التي تهل إليها في هذا الوقت المبكر من كل يوم ..

قشطة .. حليييب يا لبن .

اللوووز ..

معسلة قوي يا بطاطا .. بنار الفرن يا بطاطا ..

ووورق اللوبيا الطازه .

وصبي صغير ينفخ في بوقه معلنا عن بضاعته .. غـــزل

البنات، فيتسابق إليه الصبيه، يبادلونه حلاوته الهشه بقروشهم، والعم بجبح الذي أكلت السنون من عافيته وشربت يدفع أمامه عربته المتهالكة ، يتطوح عجلاتها الخشبية يمينا وشمالا كسكران فقد توازنه، فتهتز فوقها حلة حمص الشام والأكواب والملاعق الصفيح . . يحاول أن يزعق على بضاعته . . حمص الشاااام ، لكن الصوت الواهن المتواني يخونه، فلا يكاد يخرج من بين شفتيه حتى يتكسر عند طرفيهما ، بينما تكون أم حليتي في هذا الوقت على باب الحارة منكفئة على قالبين من الطوب، تثبتهما تحت طاولة خشبية قديمة ، لترص فوقها بضاعتها الرخيصة . . برتقال معطوب وقراطيس لب وفول سوداني وملبس فنضام، وعسلية ونداغة، ثم تتقرفص وراء فرشتها . . ثروتها كلها . وهي تحط وليدها على حجرها . . تدس يدها في فتحة جلبابها ثم تخرجها قابضة على جلدة مقددة تلقمه طفلها ليمتص الهواء . .

هو تاسع بطن لها .. سبقه ثمانية إلى القبر .. الأول مـات بالجفاف والثاني بالحصبة والثالث نزلة معوية والرابع نزلة شعبية والباقي ماتوا من الجوع ، والمسكينة صابره .. تأمل أن يعيش لها واحد منهم تتوكأ عليه لما يعجزها الدهر أو تأكل السنون عافيتها .

وأم فتحي الزوجة الشابه أم خدود تفاحي، الساكنة في الغرفة الأرضية في البيت الملاصق لبيتنا تخرج كل يوم إلى الحارة لتدلق فيها ماء استحمامها كعادتها . كل صباح تدلق ماء استحمامها وزوجها، تغطي شعرها الذي تتساقط منه قطرات الماء بفوطة حمام، وخداها موردان، وشفتاها تتمتمان : كايده العزال أنا من يومي .. وجسدها يبين من وراء قميصها الشفيف .. تنظرها أم وليد ذات السمرة الداكنة والمتزوجة من شيخ كبير، لا تكاد ملامحه تبين من تجاعيده الكثيرة، ثم تقول لها ضاحكة : ماتسلفيني يا ختي جوزك ليله .. ؟

تصـادف مرور أبو العـلا العجلاني وقد دثر جسده الضئيـل بعفرته مزيته .. التقطت أذناه كلام أم وليد، فقال : طب ما احنا أهو يا بشر.

تنفلت أم فتحى من باب البيت داخله، بينما تمصمص أم وليد شفتيها قائلة : انخيب وانت مقطوع النفس، مهدود الحيل.

* * *

في المساء، بعد أن يلملم قرص الشمس أشعته الحمراء الداكنة ويسقط هنااااك وراء الأفق ، تلملم أم حليتى بضاعتها وتلقيها في صندوقها الكرتوني، وتضم فردة بزها وتلقيه في عبها، ومن البعيد يتناهى صوت وقع حوافر حصان يقترب ليجرح الصمت الذي يرين على الحارة في هذا الوقت من كل يوم.

ما كاد منعم يخلي جنبي الحصان من حمل العربشين حتى انطلق صوت امرأة مولولاً ..

احتل الذعر القلوب . . تراكضت النسوه من أرجـاء الحـارات المجاورة . . تكومن أسفل البيت يتساءلن والحيرة تعلو الوجوه . .

– إيه يا ختى . . فيه إيه كفى الله الشر . . ؟

– أم إبراهيم .

– يا ساتر . . كده فجأة . . دي كـانت لسـه قـاعدة قـدام بيتها .

تسـاءل بـائع البرسـيم غـير مصـدق . . دا مـين اللـي سـبقني وعملهـا . . ؟!

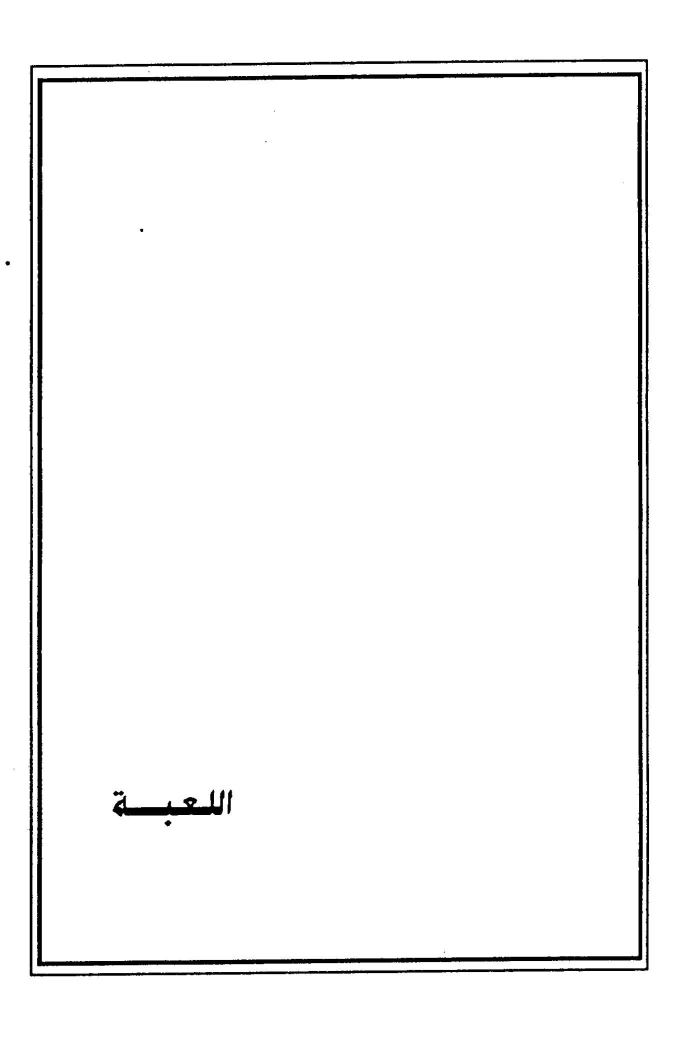
قال منعم وهو يعيد عريشى العربة إلى موضعهما من جـانبي الحصان، ألحق أبلغ ولادها ثم قفز جالسـا على مقدمتها، وقـد أرخى المقود لينطلق الحصان مجتازا الحارة وهو في حيرة من أمره، حيث أنه لم يعتد على العمل في هذا الوقت من الليل .

تكوم الرجال أمام البيت، ومن بينهم أشار إليّ عباس العتر .

نزلت .

ناولني أوراقا مكورة في يدي قائلاً : خللي المبلغ ده معاك . . ابقى إديه لحد من ولادها؛ لأني مسافر البلد ويمكن أعوق هناك ، أصلهم وفروني من الشغل . . أشوف وشك بخير . .

أكتوبر ١٩٨١



اللعبـــة

الثانية والنصف . . الشمس مازالت ترسل حممها . . تنز الأجساد عرقاً . . يهرول الفتى إلى مظلة المحطة وهو يحمي الرأس بصحيفة في يده . . وقف ينتظر العربة .

صوت أمه يحاصره، وحوار الأمس يتقاطر في رأسه . . نفضها عدة مرات عله يهرب . . التقطت العينان وجهاً تعرفه جيداً . . بسبابتيه فرك العينين .

ياه . . أبعدَ هذه السنين الطوال . . ؟!

بكفيه احتضن يده . . بشفتيه طبع فوقها قُبلاته .

شريط الأيام البعيدة الغارقة في الأغوار السحيقة تطفو . . صورة الطفل وهو يحمل أعوامه الستة بجلبابه ولوحه المعدني تطفو . . العريف والكتاب وسور القرآن التي حفظها . . تطفو الصور فوق تلافيف المخ وتتجسد، لما همت شفتاه تطبع قبلاته على ظهر

يد الشيخ.

الشيخ خضر ..؟! نعم .. هو الشيخ خضر بشحمه ولحمه.

احتوت أصابع اليمنى أصابع اليسرى تفركها .. تخفف عنها ضربات المسطرة القاسية .. يتذكر الآية التي كان يرددها دائماً ..
﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾.

* * *

- كبرت يا هابيل وأريد أن أفرح بك يا ابني.

- ولم العجلة يا أمي ؟

- تخرجت والحمد لله، وابنة عمك نضجت وأخشى أن يفوز بها قابيل دونك.

- ليتزوجها .

- إنها جميلة . . وأنت أحق بها .

- وقابيل أيضا ابن عمها ولا يقل عني في شيء .

- بل هي لك .

* * *

﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ﴾ .

* * *

كعادتها جاءت حبلى بكل البشر . . الجسد معلق في الهواء، يرتكز على خمسة أصابع قصيرة . . حشر جسده فانحشر . . يخرج الزفير . . الرئتان تستقبلان دخانا وخلوف أفواه كريهة . . يلتصق البنطلون بساقي . . أحد الركاب يقف على طرف الحذاء . . داخل قميصي يشر العرق . . كل يوم قميص . .

عفوا أم هابيل . . ليخلع عليك الله ثوب الصحة . . خمسة

عشر عاما وهي تكدح .

- آي . . كوعك يا أخي . . ألا ترى ؟

- عفوا . . إنه الزحام كما ترى .

(لا تؤاخذني . . وإنه الزحام ، وعفوا، ولابد أن تتحمل)

- وإن لم أستطع ؟)

- فكن قطا واعف نفسك .

- من الزحام ؟

- بل من كل شيء .

- أعوذ بالله .

- تخاف أن تكون قطا ؟

- أخاف من نفسي .

- إذن . . دع مثاليتك تنفعك . "

* * *

- هاه .. ماذا قلت ..؟

لما لم أعرها جوابا قالت :

رحمة الله عليك يا زهران يا ابني .. لو كنت موجودا ما عصيت لي أمراً .

***

تتقيأ العربة الكتل المتراصة ..

انحنى هابيل يعبر مزلقان السكة الحديد من تحت قطار البضاعة الذي يسده .. رائحة مياه المجاري التي تغطي ... تزكم الأنوف .. أولاد حارتنا الصغار يلعبون .. ستات محمدات .. كنا نلعبها ونحن صغار وسيلعبها من يجيء بعدنا .. كل واحد منا كان يختار عروسه من بين الصغيرات .. نخلف دمى صغيرة ونتزاور في بيوت وهمية .. أصبحنا بعدها نلعب لعبة أخرى .. في أماكن بعيدة كنا نتقابل ونحلم .. لكننا سرعان ما نملها ونبحث عن لعبة جديدة .

***

قابلته رائحة الرطوبة التي تعود عليها عندما تلامس قدماه عتبة البيت . . تسرى الراحة في كيانه عندما يحتويه الجلباب الواسع .

- أرحني يا ولدي . . قل إنك موافق .

(آه . . إنها لحوحة ولن تمل أبدا)

كالعرجون القديم انحنى ظهرها . . على عصاها جاءت تتوكأ . . احتلت مساحة صغيرة من الأريكة التي أجلس عليها . . تكرمش منها الجلد لكن الأسنان مازالت لؤلؤية . . نظرت إليها فأطل على وجه الشيخ الهرم . . مازالت الوجنتان حمراوين والعينان الصقرية تلتقطان الأطفال الذين أهملوا حفظ الواجب . .

يرن الصوت القوي في أذني : اقرأ . .

﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحِيم . وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلا يَعْقِلُونَ ﴾ .

يتخلل صوت الجدة الواهن أذني . . لا تكن عنيدا يا ولد وأطع أمك .

* * *

على كرسي عال جلست . . كضياء القمر في ليلته كانت تحتل مكانها على يساري . . سرعان ما تحتل الصفرة الباهتة لون القمر . . تتمايل وهي تخطو على الجانبين . .

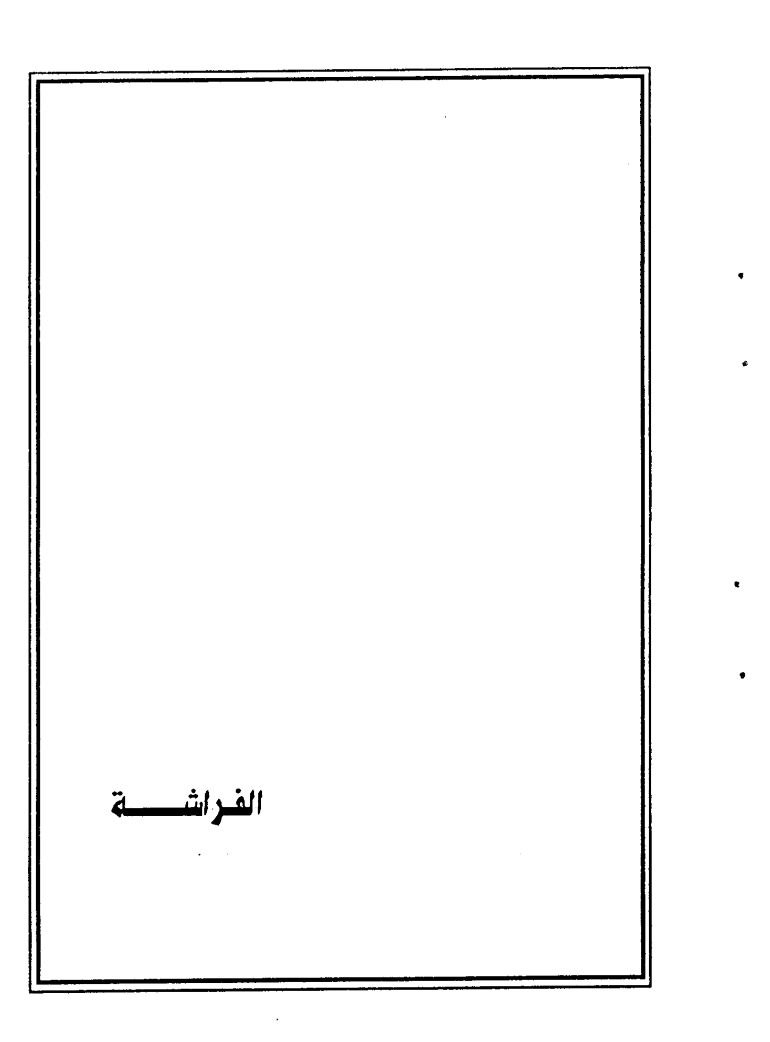
يعتري الرأس الدوار، والأمعاء تلفظ ما تحتويه . . يخرج آدم الصغير من بيته الضيق المظلم . . جاء ليأخذ دوره في اللعبة . . بعد الأحلام الوردية يمسك بالورقة والقلم اليوم بسلة و أرز ، وغدا مكرونة وبفتيك .

وتدق المزاهر، وأغيب في حجرتنا أنا والقمر

وبعيداً تغيب جدتي والشيخ خضر

وآدم الصغير يخرج من مكمنه ليملأ بصراخه الدنيا .

يناير ١٩٨١


الفراشــــة

إلى الذر الكهربائي المجاور للمرآة امتدت سبابتها . . ضغطت . . أزاح الضوء عتمة الحجرة . . اجتذب فراشة صغيرة إليه ، ضربت الهواء بأجنحتها الرقيقة . . حامت حوله . . تقترب . . تبتعد . . تحط على الحائط لثوان ثم تطير نحوه . . تدور حوله . . تدور . . تقترب . . تلفحها السخونة . . تبتعد .

إلى المرآة ترتد عيناها . . تلتقط جسدها السمهري . . تحملق فيه وكأنها تراه للمرة الأولى .

أحكمت إغلاق الباب . . حررت الجسد حتى من قميصه . . من طول سجنه . . راحتا الكفين تتحسسان اليمامتين . . تهصرهما ، والفراشة ما زالت تحوم حول الضوء . . تقترب من مصدره ثم تسرع بالفرار . .

تضغط الأصابع اليمامتين . . تهصرهما . . تغيم المرائي . . تستلقي على سريرها تحتضن الوسادة . . تضغط . . تتأوه . . تتأوه . . تغيب . . أفاقت . . وجدتها هامدة . . جامدة . . باردة . . أطاحتها . . قامت . . على عجل ارتدت ملابسها . . التقطها الطريق الأسفلتي الكالح .

* * *

كالوسواس الخناس تناهى صوته إليها . . تعالى هنا يا أبله .

كفأر أوشك أن يقع بين مخالب قط شرس ذعرت . . سألت نفسها : لماذا . . ؟

أحست بدوار عنيف يجتاح رأسها . . التفتت فتجسدت اللحظة التي تعرت فيها أمام المرآة . . هالها ما رأته . . شعرة بيضاء في مفرق الرأس . . صرخت "ياالهوي" ، وامتلأت عيناها بالذعر . .

أبهذه السرعة فات القطار . . ؟ يا اللاااه . . حتى السبنسه لن أتمكن من اللحاق بها . . ؟ آآآآخ . . ضاع من عمرك واحد وثلاثون سنه . . ! !

عندما كنت في السابعة عشر رحل أبي إلى البعيد، توسد جهده وعرقه ورحل، لم يكن يملك غيرهما . . أربعة عشر عاما بطولها وعرضها ضاعت من عمري . . قبل موته طموحي، لما وجدتني مسئولة عن صغاره، أصررت أن أحقق فيهم ذاتي .

تحسست الشعرة البيضاء ثانية، ثم تطلعت العينان على الجسد البض . . مازال رائعا . . ممشوقا، ملفوفا، غضا .

* * *

أشارت إلى سيارة أجرة، دون أن تسأل سائقها ألقت بنفسها داخلها .

– إلى أين . . ؟

- حدائق القبة.

- لا . . آسف . .

هبدت الباب مغتاظة . . تقافزت الخطوات إلى مجمع الأتوبيسات جرت عيناها بين الأرقام السوداء الصغيرة المثبتة في مداخل الحارات . . وقفت تنظرها .

(كثيرا ما اضبطه يلتهمني بعينيه . . يغرسهما في كل جزء في جسدي . . آه لو يضمني إلى صدره . . لو يمطرني بقبلاته . . بأنفاسه الساخنة)

تمرق عربة إلى الحارة . . اختطفتها من أحلامها .

على استحياء تنبثق الأضواء من المصابيح القليلة المتناثرة في أرجاء المحطة . . جيوش الهاموش هاجمتها . . حامت حولها . . اقتربت منها واقتربت . . تحترق . . تتساقط .

(لماذا تتأخر العربات .. إف .. ياخوفي لو رآني أحد الآن .. ماذا أقول له لو سألني عن مقصدي ؟ .. لتكذبي هذه المرة .. السابقة الأولى لا تحتسب .. لتكن كذبة بيضاء .. بيضاء أو سوداء أو حتى صفراء غير مهم .. ماذا يضيرك منهم .. من حمل همك وهم أخوتك معك .. فليذهب الجميع إلى الجحيم) .

خصلات شعرها الناعم تطايرت، وذيل الفستان انحسر وهي تجري وراء عربة مرقت أمامها، في لحظة أصبحت حبلى بالخلق حشرت بينهم جسدها فانحشر .. تشبثت أصابعها بمسند مقعد .. تحركت العربة فالتصق بها أحدهم .. أنفاسه الساخنة تلفح شعرها .. قفاها .. نظرته غاضبة، ابتعد .. دمدمت غاضبة: جبان .

التفت إليه البعض ومضغ غيظه، بينما تغابى البعض الآخر. فجأة سمعت صوته .. تعالي يا أبله .

(يا مصيبتي .. هذا صوت أخي .. أعرفه جيداً .. ما الذي جاء به هنا .. في هذا الأتوبيس بالذات .. يا للحظ التعس) .

التفتت حذرة .. شهقت صائحة : ياه .. إنه هو .

شقيقها الأصغر .. آخر العنقود كما كانوا يقولون له .. من عام تخرج .. يقضي الآن الخدمة العسكرية.

أجلسها مكانه .. جلست مرتعدة .. غارقة في عرقها .. خالته عرف كل شيء، قالت له وهي تمسح وجهه بعينيها .. أنها ذاهبة لإحدى صديقاتها لتهنئها بفرحها .

قال مبتسما : العقبى لك يا أبله.

***

في "الكوشه" جلست تحفها الأضواء .. على يسارها جلس بشبابه وفتوته، عناقيد اللمبات الملونة تصب أضواءها عليهما،

وأغان يصدح بها المطربون في وصف جمالها، تغمض عينيها لما يأخذها عرسها بين ذراعيه ويغيبان عن الأعين، لكنها تفيق من حلمها لما يطرق سمعها ضجيج الركاب، لتجد نفسها تتساءل .. عقبى لي .. هه ، ومن يرضى بي بعد أن فاتني القطار وبدأ المشيب يغزو شعري ؟؟

قال الفتى وهو يخطو نحو باب العربة .. مع السلامة يا أبله.

كانت تقضم أظافرها فلم تنتبه .. لما انتبهت كانت محطتها قد فاتت .

انتطرت من مقعدها .. ألقت بنفسها قبل أن تتوقف العربة تماماً .. تلقفتها أيادي البعض قبل أن تسقط.

– لم لا تنتظرين حتى تقف العربة .. ؟

– اسقوها بعض الماء .

– لا لا .. لم يحدث شيء .. شكرا لكم .

جرجرت الخطو . . تماسكت . . سمعت وقع أقدامها قويـا رتيبا .

ياااه . . إيه الحلاوة دي كلها . .

ولا جسم صوفيا لورين . .

كادت تعدو لما أحست بهما يقتربان منها . .

(ها هو بيته)

أحست برعدة وهي تخطو نحو الباب . . ابتلعها المدخـل . . صعدت الدرج . . درجـة . . اثنتين . . ثلاثة . . غرق الجسـد في بحر العرق . . انتفض . . استدارت . . هبطت . . توقفـت . . استدارت . . صعدت . . كادت تسمع دقـات القلـب . . انطفأ الضوء . . أن تمد يدها لتضغط الذر حاولت . . لم تستطع . . امتدت إلى وجهها تمسح حبات العرق المتناثر فوقه .

(إلى أين تذهبين . . كيف تفكرين . . أبعد هذه السنين يا كبيرة العائلة . . ما زلت صغيرة ومرغوبة . . ثلاثون عاما أم واحد وثلاثين ماذا يضير في هذا . . ما زال جسدك غضاً . . جميلاً وعقلك كبير ، وتفكيرك سليم كما يقولون، وكل الرجال يطلبون رضاك . . بالأمس فقط قالت لك إحدى زميلاتك لا يمنعهم عن طلبك سوى إحساسهم برفضك . . ارجعي يا كبيرة الأسرة . . يا عاقلة.

لا لا . . لا تضحكين على نفسك ، فقد كبرت وفاتك القطار . . أي قطار ، وحتى لو فات . . انتظري غيره . . أما أن تلقي نفسك تحته فلا . . لا . . لا . . ارجعي . . ارجعي . . حرام عليكي نفسك . . اخوتك . . ارجعي) .

بسرعة استدارت . . هبطت . . نفذت إلى الشارع . . وقفت . . أخذت نفساً عميقاً . . امتلأ صدرها بهواء الليل

الندي . . أحست بخفتها فراحت تعدو .

أدارت المفتاح في ثقب الباب . .انفتح، فانفلتت الفراشة خارجة من عتمة حجرتها إلى ضوء البهو المتسرب من النافذة المفتوحة .

يناير ١٩٧٩

الرعب .. الركض .. النزف .. الموت

أمسك الشيخ الكبير بالدفة .. أمطرت السماء فكان البحر .. بطن السفينة باتت حبلى من كل زوجين اثنين .. راحت تمخر عباب البحر .. استوت على الجودي .. بسلام هبطوا .. قبل أن يتفرقوا سأل بعضهم البعض ..

- ماذا ستعمل ..؟

- أزرع .

- وأنت ..؟

- تسعة أعشار الرزق في التجارة .

قال رجل كان يقف غير بعيد .. أما أنا فقد تعلمت صنعة الحديد وسأصنع لكم منه دروعاً تقيكم شفرات السيوف وطعنات الرماح.

صاحوا محتجين : مالنا والدروع وقد جئنا لأرض طيبة وقلوبنا عامرة بالحب . . ؟!

سرحت عيناه إلى البعيد وهو يفكر في أمر قومه، ثم تمتم قائلاً: إذا كان الحب يملأ جوانحهم فلماذا لا يفكرون في رد السهام عنها إذا أُفلتت من أقواسها . . ؟!

* * *

كان يجلس بمفرده في إيوانه، يجيل الطرف فيما حوله . . فجأة اقتحم عليه شخصان خلوته، نظرهم والدهشة تملأ عينيه، بادره أحدهم قائلاً :

جئتك لأشكو إليك أخي هذا، فإن له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة، ولم يتركني لحال سبيلي، بل راح يلحف في سؤالي بأن أدع له نعجتي ليضمها لنعاجه ويكمل بها المائة، فانظر ماذا ترى . . ؟

تلفت القاضي إلى الرجل الآخر وسأله مستنكراً : أصحيح ما سمعت؟ أجاب قائلاً : وماذا يضيره لو أخذتها منه وضممتها إلى نعاجي وأكملت بها المائة . . ؟

استشاط القاضي غضباً، وحذره من التعرض لأخيه ثانية.

* * *

ترسب الإحساس بالهزيمة في أعماقه ، فسولت له نفسه قتل أخيه، وبموته يرث النعجة فيتم بها المائة، ويتحقق له ما يريد . . نعم ليكن ذلك .

شد الخطو لدار أخيه الذي رآه من بعيدا فأقبل عليه هاشاً . . أجلسه بالمضيفة وخرج إلى حيث نعجته وهو يهمس لنفسه : لا ضير أن أبيت يوما بلا لبن، فقد جاءني شاعرا بخطئه، وربما يكون نادما .

أفرغ ضرع النعجة في الإناء، ثم خطى نحو المضيفة مبتسما وهو يحمل اللبن إلى أخيه.

***

من بعيد رأته أمه مقبلاً . . لون الدم يغطي يديه وذيل الجلباب . . بصوت مولول صرخت : ماذا فعلت بأخيك . . ؟

– أراك منزعجة ، فلماذا . . ؟

– ماذا فعلت بأخيك يا مجنون . ؟

– لم أستطع أن أقاوم رغبتي في قتله فقتلته.

***

– لابد أن نأخذ بثأره .

– سيهبون لمقاومتنا وستكون الخسائر جسيمة.

– لم يفتنا ذلك . . فقط أعدوا النبال والمجانيق .

***

بثوا أعينهم في كل مكان فعرفوا ما يدور في الجانب الآخر .. جروا إلى الصوامع التي أخفوا فيها البارود .. استعرّت النار .. قُتل مَنْ قُتل وجُرح الآلاف .. تعبت الأجسام وضاقت الصدور فقبلوا الشروط، لكن النفوس انطوت على شيء .. ظل الشيء يمور ويمور ولم تهدأ حتى صارت النار رمادا.

***

ارتاحت الأجساد فاستردت عافيتها، فجمعهم قابيل .. صاح فيهم : لقد منحنا الله بسطة في الجسم، وسداد الرأي، وفطنة العقل وسعة الرزق، ولا أظن أن لغيرنا ذلك، وإن قوما لهم هذه الصفات لجديرون أن تكون لهم الأرض والأنهار دون الخلق، وأن يعمل لنا هؤلاء بلقمة نلقيها إليهم.

هتف القوم : نعم الرأي .. نعم الرأي

صاح : والآن انصرفوا لتعدوا العدة، ولا يغيبن منكم أحد إذا ما أعلن النفير .

* * *

كان العلماء في معاملهم منكبين على تجاربهم.

متباهيا قال أحدهم : لقد انتهينا اليوم من إجراء بعض التجارب على الفئران . . فجرنا نموذجا مصغرا من القنبلة العنقودية فدمرتها عن آخرها .

رد آخر : أما نحن فقد توصلنا إلى القنبلة الجرثومية المدمرة للأعصاب .

قال ثالث : علينا أن ننصرف بعد ذلك إلى أعماق البحار والمحيطات حتى نتوصل إلى صواريخ تطلق من الغواصات .

أكمل رابع : وأيضا إلى الفضاء لمتابعة الموقف على مستوى الكرة الأرضية حتى لا يغيب شيء عنا .

* * *

في ساعة الصفر التي حددها لنفسه انطلق الفتى لا يلوي على شيء .. إلى الفلاة حملته قدماه .. جرى وجرى حتى تورمتا .. من البعيد التقطت عيناه شجرة، أحس برفيف قلبه . افترش ظلها، وهو يقلب عينيه في السماء سأل نفسه : لماذا ..؟ أي ذنب اقترفوه حتى اشترك في حصد أرواحهم..؟!

سمع وقع أقدام تقترب .. مذعورا انتفض .. تلفت .. أسرع الشاب الآتي قائلا: السلام عليكم .

هدأ روعه

قال الشاب الآتي : أتسمح لي أن أشاركك ظل الشجرة؟

قال : لقد خلقها الله لكل عباده .

على شفتيه رفرفت البسمة .. بجوار صاحبه حط جسده .. على ساق الشجرة أسند ظهره .. في أمر قومه سرح بفكره فعاوده الكدر ..سأله صاحبه : أراك مهموما .. لماذا ..؟

قال : كيف لا وهم يريدون لهاتين اليدين أن تسفكا دماءً لم ترتكب جرما .

قال : أنت أيضا . . ؟ الحمد لله الذي هداني إليك .

أقبل ثان وثالث . . رقعة الظل تتسع وتتسع . . تحتضنهم .

قال أحدهم : أخشى أن يرسلوا عيونهم في طلبنا ، فراحوا يبحثون عن مكان آمن يختبئون فيه . . دخلوا كهفا . . تمددوا . . راحوا في سبات عميق .

* * *

في غرفة القيادة قال ضابط لآخر : لا مفر . . فستمتد الحروب إلى ميادين تتصل بأعماق البحار والمحيطات والطبقات الجوية العليا .

- . . .

- أراك سرحت بعيدا .

– ألست معي أن ذلك سيكلفنا الكثير .

– نعم . . هذا ما يشغلني كثيرا .

للتغلب على ذلك لابد لنا من تركيز الضربات على الموارد الاقتصادية للعدو وكذا مصادر المياه بالسرعة اللازمة ، حتى ننهي الحرب لصالحنا خلال أيام معدودة .

– مهلا . . إن ذلك سيؤدي إلى انتشار الحرب حتى تشمل أكبر عدد من البلدان .

– ولذلك لابد من السيطرة على الموارد الاقتصادية حيثما كانت .

– معنى ذلك أن نخطط لنشر الحرب على الكرة الأرضية .

– ولم لا ، وأنت تعلم أن ميادين القتال ليست متساوية الأهمية، ولابد من اكتساب بعض مسارح العمليات ذات الأهمية القصوى خلال مرحلة ما لننتقل منها إلى مرحلة تالية للسيطرة على

مسرح آخر .

- سيؤدي ذلك بالضرورة إلى انتقال ثقل الأعمال القتالية من إقليم لإقليم ومن قارة لأخرى . . الأمر الذي يستدعي منا تبديل مخططات الحرب وتغييرها بصفة مستمرة .

- ليس ذلك فحسب، بل وأيضا أساليب الحرب نفسها، فعلى أحد المسارح نشعل حربا ثورية بالأسلحة البدائية، في حين يتم خوضها على مسرح آخر بقوات نظامية بالأسلحة المتطورة بينما ترتفع شدتها في منطقة ثالثة حيث تستخدم أسلحة الدمار الشامل والقوات النظامية المزودة بأحدث وسائل القتال .

- المهم - كما تعلم - المباغتة والتحولات السريعة الحاسمة .

- لا يغيب عن ذهنك توافر التصميم العنيد لدى العدو لإحراز النصر .

- سنتغلب على ذلك لو وفرنا الاحتياطي اللازم الذي سيحل

محل الذين سنضحي بهم من المتحاربين أيضا .

* * *

يمنة ويسرة تلفت قائد المخابرات . . انتقلت عيناه بين جنوده .

التقطت عيونهم السؤال قبل أن يلفظ به . . بنبرات أصواتهم المرتجفة قالوا :

لم نعثر لهم على أثر .

* * *

تعاقب الليل والنهار، والسنون تطوي الشهور، والكرى معقود بأجفانهم . . تنفذ أشعة الشمس إلى الكهف من كوته فينتشر الضوء خلاله ، وتختزن الجدران حرارتها ، وتغرب فتميل وتبتعد ، والأجساد ممدة . . تتقلب مرة يمينا ، ومرة يسارا .

* * *

أعطى القائد إشارته .

في البدء كان المنجنيق فالبارود .. رقعة الحرب اتسعت فدخل الرشاش، ثم الدبابة، وسرعان ما غطت حاملات الرؤوس النووية سماء الكون.

عام مر وآخر وثالث .. اليأس بدأ يدب في نفوس الجند.

أحد الجنود قال لآخر: لقد أخبرونا أنها مجرد نزهة قصيرة ننتهي خلالها من حصدهم .. ها هي ذي السنة الخامسة قد أوشكت على الرحيل وما زلنا نحارب ..!!

– إنهم يحاربون للذود عن أرضهم .. عرضهم .. حريتهم، أما نحن فلم نحارب ؟

***

قرير العين نام بعد أن لازمه الأرق ليال طوال .. قبل أول شعاع من ضوء الشمس كان الجند قد ارتدوا الأقنعة الواقية.

أصبحت الطائرات فوق المدينتين العنيدتين .. أسقطت قنابلها

الذرية .. بالأعالي تساوت الأسافل .. الغازات الحارقة انتشرت و .. خمدت كل الأشياء .

***

من بين الأنقاض جمع أشلاءه .. بين الخرائب تلمس طريقه .. وجد حجرا .. حمله ، قابله آخر اختفت تقاطيع وجهه ، فبات بلا وجه ، سأله : ماذا ستفعل بهذا الحجر ؟

قال : سأبني بيتا .

أراد أن يضحك، لم يسعفه فكه الأسفل ، أن يبكي

لم يجد شرايين تمده بالدموع، فحرك كفه وكأنه يقول :

تبني بيتا .. !! لماذا ؟!!

فرمى الرجل الحجر .. ثم تمدد وتوسده

***

مذعورة صرخت وهي تراه واقفا وسط شقتها البعيدة عن المدينتين . . كان الوجه مشويا والأطراف متسخة . . دارت بها الدنيا فوقعت . . لما أفاقت قالوا لها . . إنه زوجك ، فتوقف منها النبض .

***

خمدت النار . . صفت السماء . . استرخت الأعصاب هدأت . .

***

المسا . . الأخبار . . البلاغ . . الحياة

كان صوت البائع نواحا لم تألفه آذانهم ، فجروا إليه . . التقطوا صحيفة . . فوق الأحرف جرت العيون . . جرى الرعب فوق صفحات الوجوه ، فتسمرت العيون فوق الحروف . .

قرار البدء بتنفيذ مشروع الصاروخ النووي عابر القارات

الأحدث (إم - إكس) على أساس مخطط جديد يقوم على نشر مائة صاروخ من هذا الطراز الضخم في مجموعة مكثفة فوق شريط من أرض لا يتجاوز طوله أربعة عشر ميلا، وعرضه إحدى عشر واثنين من عشرة من الميل .

* * *

من نومهم انتبه الفتية وقد عض الجوع أمعاءهم. سأل أحدهم : ترى كم لبثنا . . ؟

- ربما يوما .

- لا . . بل بعض يوم ، فها هي الشمس ما زالت تطل علينا .

- آه . . أشعر بجوع شديد وكأن أمعائي خاوية منذ أمد بعيد .

ما رأيكم أن نقترع لنرى من منا يذهب إلى السوق يلتمس لنا بعض الطعام . . ؟

* * *

خائفا حذرا دخل المدينة .. بين جنباتها أرجع البصر مائة مرة .

ما هذا ..؟ خراب .. خراب .. خراب ..!!

وعيون الخلق .. مالها حمراء تطلق الشرر ..؟ وأظافرهم .. كيف تبدلت بحوافر مدببة معقوفة ..؟!!

امتلأ خوفا .. عائدا جرى إلى رفاقه، جاءوا معه إلى المدينة .. امتلأت نفوسهم رعبا .. أطلقوا لأقدامهم العنان.

قال قائل منهم .. نعود إلى الكهف .

أجابوه : قد يتبعوننا إليه .

سأل : إذن .. ماذا ترون ..؟

قالوا : نظل نجري .

***

حـول الشـمس دارت الأرض ودارت ، وحـول نفسـها دارت ودارت .

* * *

قال أحدهم لاهثا : تقطعت منا الأنفاس . . يجب أن نتوقف فنلتقطها وإلا هلكنا .

بالكاد التقطت آذانهم ما رددته حناجرهم : هيهات . . هيـ . . ها . . ت ت ت .

نوفمبر ١٩٨٣

هرمونيا جوقة الزواحف

ثنى ركبتيه حتى لامست ذقنه .. أصبح كما العرجون القديم ..

ينفذ الضوء من ثقوب البطانية .. يغمض العينين . وقوقة ماء يغلي ووشوة الموقد تخرق الأذنين ..

يتقلب على الجنب الآخر .

كفاك كسلا .. السادسة والنصف الآن .

اللهم اجعله خيرا .. حتى في الحلم يا زوجتي العزيزة !؟

تضحك على نفسك .. قم .

* * *

دائما تأتي مبقورة البطن من الجانبين

أركب .. ؟

انتظر غيره ..

تخلص من تردده . . حشر القدم فانحشرت بين مئات الأقدام . . تبحث يدي عن شيء تمسكه حتى لا يسقط الجسد . . على قفا أحدهم استقرت . . يصفح الهواء وجهه . . تتجمد الأطراف وتحمر .

***

فوق بطانيته المثقوبة تسقط . . يُحدث سقوطها صوت تلتقطه الأذن البعيدة .

. . يتقزز

أطل عليه بوجهه الباهت

من بين ثقوب البطانية أخرج يده

لابد أن الناموسية كانت كحلي.

على الحشرة تقبض السبابة والإبهام .

كان الأولى أن تكمل نومك وتوفر علينا مجيئك .

فوق بلاط الحجرة العاري يلقى الحشرة .

عفوا سيادة المعاون . . المواصلات والزحام كما تعلم .

كلنا نركب المواصلات ولا نتأخر .

بقدمه اليسرى سحق الحشرة

إخص . . إتفو .

* * *

من بين شقوق البطانية يتسرب الصوت الدافئ

الساعة سبعة إلا ربعا يا سي خليل .

نطر الجسد فانتطر .

بيسراه قبض على كوز الماء . . ثنى الجزء الأعلى من جسمه للأمام . . رش الوجه بالماء . . جففه بالمنشفة .

كظله المتطاول في الليالي القمرية يأبى الوجه الباهت أن يتركه .

وبعدها لك . . ؟ يا فتاح يا عليم .

بكف اليمنى يمنع الرذاذ المتطاير من فمه عن وجهه.

يا كسول يا لكعي . .

كور المنشفة . . أطاح بها فأطاحت بعنكبوت يتسلق خيوطه الواهنة إلى ركن السقف الأيسر . . يسقط . . لكن سرعان ما ينسج خيوطه.

قبل أن تعود قدماك تسلق درج المصلحة إلى غرفتك بالسطح كنت مثلنا .

أتقذفني بالمنشفة يا ابن الـ . .

كضفدعة مصابة بالشبق رحت تنقنق له بكل ما يجري بين الأروقة .

إخرس.

أراحك من الجري وراء العربات فرحت تجري وراءه . .

تصب في أذنه كل ما تسمعه .

* * *

الشاي ياسي خليل.

براحتيه أحاط الكوب

قبل أن ينفلت اللسان بالسؤال قالت :

لم تعد القروش الخمسة تبتاع حليبا .

(حتـى اللبن الـذي اعتدنـاه منـذ أن رفسـنا الهـواء بأقدامنـا الصغيرة الرخصة ، وملأنا الدنيا بصريخنا المسرسع سنُحرم منه .)

يُضيّق الشفتين على الكوب وهو يشفط "بق" الشاي فيحدث صوتا يكسر صوت الصمت الجاثم فوق صدر الحجرة.

* * *

تذاكر . . تذاكر

(خمسة قروش كاملة للتذكرة . .

تذكرتان ويكسر الحليب مرارة الشاي الأسود . .)

تقف العربة . . يسكت أزيز المحرك

هيا أيها السائق اللكع . .

– العربة جراج يا حضارات .

إيه . . وال . . الخمسة قروش ؟؟!

* * *

لا أمل .

قالها وهو يجرجر الخطو فوق أسفلت الطريق

يزدرد لعابه وهو يرنو إلى الألسنة الطويلة الحمراء التي يعرضها بائع لحم الرأس على المارة .

يا فرحتك يا عشماوي الكلب . . ستكون الفرصة مواتيه لتطلق رذاذك .

– يا خليل أفندي . . يا أستاذ خليل .

العينان تجوبان محيط الشارع . . ارتدتا دون أن تلتقطا أحدا والسؤال يترى في رأسه . . من يعرفني هنا . . ؟ . . من يعرفني هنا . . ؟!! إنتبه فالسيارات مسرعة .

كصفارة خطر اخترق الصوت أذنه

- اتفضل .. اركب

كمرآة تعكس أشعة الشمس المتساقطة عليها كانت صلعته التي برزت من نافذة السيارة .

- أنا ..؟!

- نعم .

(ادخل لسانك يا وغد وابعد لعابك عن وجهي)

حط الجسد على المقعد الخالي .. تتلصص العينان على الوجه والصلعة اللامعة .

ولكن .. من الرجل ؟؟

❋ ❋ ❋

زوت ما بين حاجبيها وهي تتطلع إلى وجهه .. ترتسم علامات الحيرة على وجهها .. يتساقط السؤال في رأسها ..

لم هذا الشرود . . ؟!

- هون عليك . . غدا يفرجها الكريم .

قالت جملتها وهي تهم بوضع الرغيفين وطبق العسل الأسود فوق طبليتهم العجوز .

تقرفص بجوارها .

آهلا خليل أفندي .

- أهلا يا أفندم .

- بالتأكيد لم تعرفني .

- . . . .

- أنا المدير الجديد .

المدير الـ . . . أمعقول . . !!؟

- علمت أنك ما زلت على الفئة الرابعة بالرغم من سنوات خدمتك الطويلة .

- . . . .

- أنت أكيد مظلوم . . فقط اهتم بالمواعيد .

آهه . . أبهذه السرعة يا عشماوى المصائب أدرت اسطواناتك المشروخة ؟!

. . . تبطئ العربة . . زحام

أكره كل الحيوانات الزاحفة .

- وبما أنك موظف قديم وتعرف كل الموظفين وسراديب المصلحة فاسمح لي أن أدعوك على فنجان قهوة بمكتبي .

حشت الأصابع اللقمة المغموسة بالعسل في فمه . .

انفلت السؤال من فمها . . مالك يا أخويا . . ؟!

- طلبت أجازة لمدة شهر .

- شهر !!؟

تمتد اليد باللقمة الثانية إلى الطبق . .

السؤال مطرقة تدق جدار الرأس . . وماذا بعد الأجازة . . ؟

اخترع له أي كلام .

عن من ؟!

توقفت اليد باللقمة في منتصف الرحلة المكوكية . .

سقطت ذبابة كانت ترسل طنينها وهي تدور حوله في نهر العسل الأسود . .

أطاح الطبق بعيدا . .

كتمت الزوجة صرخة كادت تنفلت من شفتيها .

انثال رذاذ العسل على الحائط المواجه .

دوت الصرخة المكتومة بن فم الزوجة وهي تنظر إلى خيوط العسل فوق الجدار

.. سرى الشعور بالراحة في كل حواسه .

قام يبحث عن كوز الماء ليغسل يده .

يناير ١٩٧٩

الـهـامـوش

تركيب السلك هذا الشهر سيربك الميزانية .

وهي تتثاءب قالت زوجتي جملتها

ركبت رأسي وأحضرت النجار . .

ملء جفوني سأنام الليلة . . ناموس العالم وهاموشه لن يمكنهم سلك النافذة من النفاذ إلى الغرفة . .

صوت المذياع المتسرب من محل المكوجي أسفل البناية . . نباح الكلاب الضالة . . نهيق الحمير . . كل ذلك لا يهم . . قطعتا قطن صغيرتان . . فقط قطعتان تسدان فتحتي الأذنين ويعلو الشخير . . آه . . ما أجمل أن يغرق الإنسان في بحر النوم العميق الذي بات عزيز المنال . .

عيناي قفزتا فوق كلمات الصفحة المفتوحة أمامهما . . لقد أمكن نقل الحيوان المنوي حيا لإحدى البويضات . . في وسط دافئ

تم التلقيح .. تكونت المضغة .. في رحم امرأة تعاني العقم قُذفت .. نما الجنين .. تخلق ..

واحد .. رن .. اثنين .. رن .. اثنا عشر

- ألن تنام .. ؟

- أتذكرين يوم كنا نناقش كيف توصل بعض العلماء لمعرفة نوع الجنين عن طريق تحليل السائل المأخوذ من بيت الرحم .. وقلنا يومها ماذا يخبئ العلم للغد .. ؟

- أن أنام مبكرة حاولت جاهدة .. نباح الكلاب تخترق جدار الرأس .

- ....

- لا أدري كيف سأقف غدا في غرفة العمليات .. (يا الله .. العالم كله ينتظر نتيجة هذه العملية وكأن فيها خلاصه .. حقيقة أنها لم تُجر من قبل ، وسيُحدث نجاحُها انقلابا في عالم

الطب، وستهب الحياة لكثير من الأطفال الذين يولدون بقلوب مريضة.

– ما دامت كل التجارب قد نجحت، فلم كل هذا الخوف . . ؟

– تجاوزت الساعة منتصف الليل . . ألن تنام . . ؟ !

* * *

بلمسة إصبع فوق زر صغير أزاحت العتمة الضوء عن الغرفة . .

هل النوافذ كلها مغلقة . . ؟

داخل أغوار الرأس طفا السؤال . . كمن لدغه عقرب ذكر انتطر الجسم الذي لم يسوّ فوق السرير . . الجدران تحسستها . . الشيش . . المقابض . .

جفوني الرملية أطبقتها . . بين الفكين باعدت – أفعل ذلك

عندما أستجدى النعاس - هَوْ هَوْ . . هَوْ . . هَوْ . .

من خلال الجدران . . النوافذ . . تسرب نباح اللقطاء . .

يتعالى . . يتزايد . .

في ليالي الصيف الطويلة أحب الجلوس في الشرفة استجدي نسمات لا تجيء . . إلى بلاد الخجل البعيدة أسافر . . تدله الأنثى المحلقة بعشرات الذكور اللاهثين . . فوق ظهرها يتبدلون أماكنهم .

كما يحكم اللحادون وضع الأحجار الثقيلة المستطيلة على فتحات القبور، وضعت الوسادة فوق رأسي . .

زن . . ن . . ن

يا للملعونة . . من أين جاءت ؟؟!

* * *

- ما هذا . . ؟

يتقيأ كل منهم السؤال حين يراني . . يرسم الدهشة على وجهه والرثاء .

– لا . . أبدا . .

– البثور تنتشر على خديك والذراعين . .

– ربما كانت هناك وليمة أقامها ناموس الحي وهاموشه على شرفي .

– ها ها . . ها ها . . ي

وددت لو لم يدر مثل هذا الحوار بيننا في الغد . .

زنّ . . ن . . ن .

آه . . لابد أنها كانت مختبئة هنا قبل تركيب السلك .

تقرفصت . . عيناي مسحتا الجدران . . السقف . . السرير . . ضلف خزانة الملابس .

هذا . . ولقد شهد عام ٥٧ تقدما ملحوظا في علم الفضاء .

صوت المذياع المنساب من محل المكوجي يخترق طبلتي الأذنين . .

إذ أطلق السـوفييت المركبـة سـبوتينك – ١ ، الـتي اخـترقت المجال الأرضي إلى المدار الكوني ، وعادت محملة بالصور والوثائق، ومعها بدأ التاريخ الفضائي .

***

دي هلوسة . . ديما جوجية . . كلام فارغ

كل ما في طاقته من جهد بذله . . فوق وجهه خلع علامات الدهشة والغضب حين التقطت أذناه سؤال زميلنا "نجيب" . . برطمت شفتاه . . أرعد صوته : اقعد يا أفندي.

الصورة قفزت من داخل تلافيف الرأس . . خمسة عشر عاما منذ تركنا الجامعة . . غادرنا نجيب إلى بلاد الله الواسعة . . من صفحات الصحف نلتقط أخباره . . كما تلتقط الأصابع الخبيرة قطع الماس الحر التقطوه . . في المـجال الذي عشقه منذ صبـاه

وضعوه.. سبحان الله .. بإشارة منه تتحدد المواقع التي تحط فوقها المركبات الفضائية .

***

- أليس لهذه المياه القذرة التي تغرق الطرقات من نهاية ؟؟

- المجاري ضربت وتحتاج لصيانة .. !!

- المجاري فقط يا سيد ؟!

ومن " يورى جاجارين" أول رائد أطلق إلى الفضاء في إبريل ١٩٦١- إلى اليوم مرت في الفضاء ثلاثة أجيال من رواده .

***

وبعدين ..هل سأظل هكذا حتى الصباح .. ؟

لابد أن أفعل شيئا .

قمت .. أطفأت النور .. بطرف المنشفة أمسكت ..

فتحت النافذة .. في كل اتجاه ضربت الفضاء حتى كلت يداي ..

أغلقت النوافذ . . بين الفكين باعدت . . على جنبي الأيسر

تقلبت . . وضعت الوسادة فوق الرأس . .

زن . . ن . . ن .

كطائرة تنقض على جيوش العدو انقضت . . خرطومها الحاد

خرق جلد الوجه .

آآي

إلى البعيد طوحت الوسادة . . تقرفصت

زن . . ن . . ن .

فوق الجبهة حطت رحالها . . بطيئا حركت كف اليسرى . .

استجمعت قواي . . ضربت الجبهة . . على زر النور ضغطت

. . عن الجثة بحثت . . إلى الحائط أسندت الظهر . .

بكفي احتويت الرأس .

وسار " نيل آرمسترونج" و "أودين الدرين" فوق سطح القمر،

وأحضرا عينات من هناك، وقامت المعامل الفضائية بتحليلها .

ماذا لو تمكنوا من توفير الماء والغذاء والتربة .. هل يمكنهم العيش هناك ..؟

ماذا عن التوازن والجاذبية ..؟ تساقطت الأسئلة في الرأس .. استقرت فيه ..

بعد ذلك انتقل البرنامج السوفييتي إلى مرحلة جديدة تهدف إلى إقامة محطات فضائية قرب الأرض، وستشهد نهاية الثمانينات هذا الإنجاز العظيم، فلقد أثبت ساليوت - ١ تقدما ملحوظا بعد أربع سنوات من إطلاقها ، فهي تحتوي على رصيف مرفأين لاستقبال المراكب الفضائية ، وقد تم تطوير هذه الناحية التقنية لاستخدام مركبة "سيوز" لغرض إرسال فريق من الرواد يحل الواحد منها محل الآخر ، مع الإبقاء على محطة "ساليوت" ثابتة في مدارها الكوني .

***

وكأنها قلقت لقلقي سألتني بصوت متثائب : ألم تنم بعد ..؟!

- ....

تمطى صوت المؤذن في الفضاء .. انتشر .

الصلاة خير من النوم

هاء .. هاء ..

هَو .. هَو ..

زن .. ن .. ن

اختلط النهيق والنباح والطنين.

- أين المبيد ..؟

سألت بصوتي الزاعق الضجر .

أحكمت إغلاق النوافذ والباب ..

فضاء الغرفة وصدري ملأتهما بالرذاذ .

من الخزانة تناولت ملاءة، فوق الأرض بسطتها .. عليها

دحرجت الجسد . لا يبدو جزء مني . . ودت لو ربطت طرفيها من ناحية الرأس والقدمين . .

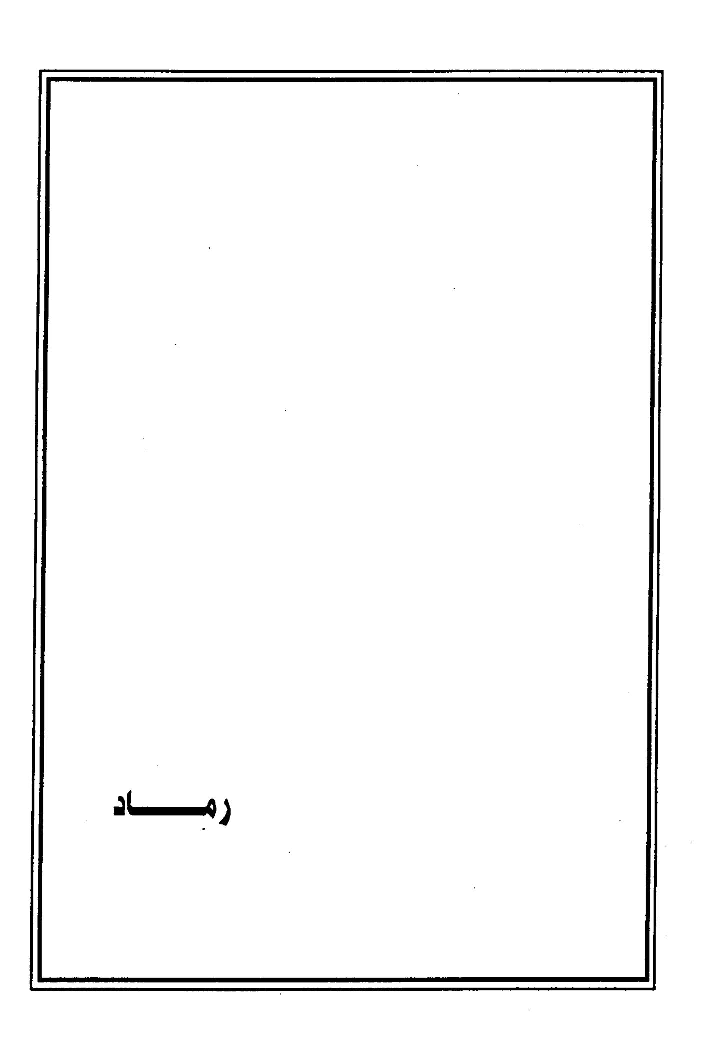
أغمضت العينين . . باعدت بين الفكين . .

هَو . . هَو . .

زن . . زن . . ن . . ن

قذفت الملاءة . . بالجدار ارتطمت . . نظرت الجسد . . فوق الرأس انهمر شلال الماء . . عكست المرآة المثبتة فوق الحوض احمرار العينين . . وقع الأقدام فوق أسفلت الطريق ضاع في خضم الأصوات الزاعقة الراكضة وراء الرزق .

نوفمبر ١٩٧٩


رمـــاد

كان الجو حاراً . . رطباً . . أحسست بالاختناق . . انظر من النافذة إلى أوراق الشجر فأجدها هـامدة . . قلت لنفسـي انتظر حتى يهل علينا الليل بنسمة طرية تغسل ذمّة النهار المميّه . . لم أستطع ، فهربت من علب الأسمنت الملتهبـة . . وجدتـني أسير نحو المقهى . . بدأ النهار ينسحب من أمام العتمة الزاحفة ببطء . . الأضواء الكابية وسكون سطح الماء في المجرى العتيق وهمود أوراق الشجر شحنتني بحزن شفيف . . جاءني النـادل العجوز بكوب القهوة المرة والشيشة . . التقطتني عيناه من بعيد فأقبل متهلل الوجه . . ضمني إلى حضنه . . خبط على ظهري بكفه . . أخذته إلى حضـني . . ردد . . رددت : أوحشـتني كثيرا .

جاء النـادل فرحاً لمرآه ، ناثرا كلمـات الترحيب به . . ناوله

سيجارة من البلاد التي زارها .. رشفها وراء أذنه اليمنى وهو يضحك قائلاً : لم نجل صدرنا من مدة طويلة يا أستاذ .

لم يكد يجلس حتى أشار إلى جهة من الشارع قائلا : أخوك خليل ..

نظرت إلى حيث أشار .. رددت البصر ثم سألت : مَنْ ؟

قال مؤكدا : خليل .

تساءلت : من خليل ؟

نظرني مستنكرا ثم قال وهو يمد يده على آخرها : خليل إبراهيم .. صديقك الحميم .. ألا تراه .. ؟ !!

رحت أبحث عنه في سراديب الأيام الفائتة .

***

لم أكد أضع رأسي على الوسادة - بعد أن تجرعت مرارة السهر لليلتين حتى وجدت نفسي في أحضان النوم .. لم أكد أغرق

إلى قراره حتى شعرت بيدها تهزني بشدة وهي تردد قلقة : قم .

صحت غاضبا : لم . . ؟

قالت : خليل ينتظرك في الصالون .

قلت منزعجا : خليل ؟ ! في هذا الوقت من الليل ؟ !

ملأني الخوف ، فجريت إليه متسائلا : ألست بخير ؟

كانت الحيرة ترقد في عينيه . .

قال ويداه تفركان بعضها بعضا : مرضت أمي فجأة وليس معي نقود لعلاجها .

قلت : لحظة واحدة أرتدي ملابسي ونذهب سويا لعرضها على أحد الأخصائيين .

اضطرب للحظة ثم قال : لا لا . . ليس الأمر خطيرا إلى هذا الحد ، فقط سآخذها إلى البلد وأعالجها هناك . .

أعطيته ما كان معي . .

يومان .. أربعة .. خمسة والقلق يمزقني .. قبل أن أتخذ قرار السفر إليه وجدته أمامي .. سألته متلهفا عنها .. زرّ عينيه وصعّر خده ثم تمتم : بخير، ومضى مبتعدا .. شعرت بأنني أتقزم ، واتخذت قرارا

***

ألح صوته على أذني صائنا باسمي لما رآني مقبلا نحو المقهى .. تذكرت ما كان منه فلم أعره التفاتا .. قام .. جرى إلى كرسي خال وأحضره .. نفض قاعدته .. لعب الفأر في عبي .

- ماذا تشرب ؟ سألني .

- لا شيء .. قلت .

- لابد أن تشرب شيئا .. ألح .

نظرته بارتياب .. ضحك فجأة فبرزت أسنانه الصدئة ،ثم لاذ إلى الصمت ، غارسا عينيه في حجر البوري الذي يشد أنفاسه دوما .

آثرت أن أترك مساحة الصمت تفصل بيننا .. آثر أن لا يتركها تتعملق .

قال : تصور .. أنا هنا منذ الأمس .

- ....

قال : منعني صاحب البيت من دخول السكن ما لم أسدد متأخر الإيجار .

غلبني ضعفي فدسست يدي في جيبي .

***

عن آخره امتلأ السرادق .. عرفوا الخبر من الصحيفة فجاءوا للتو .. قبل أن ترحل عن عالمنا سألتني : كيف حال أم صاحبك خليل ؟

قالوا وهم يشدون على يدي : شد حيلك .. نعرف غلاوتها عندك .. لكن ما حيلتنا ..؟

لم تغب عني بسمتها التي كانت تفترش وجهها دوما ، فتخلع عليه إشراقة حلوة أضاءت حياتي . . تطل عليّ فأسألها معاتبا وعيناي تسحان الدمع : أهكذا مبكرا . . ؟

قالوا : وحد الله .

كفكفت دمعي . . افتقدته . . وسوس لي شيطاني بالشر . . خفت . . سألتهم عنه : أين خليل . . ؟

قالوا : كان معنا قبل أن نجيء .

***

بعد شهور عديدة قضيتها في البلدة جئت . . كانوا يجلسون في شبه دائرة، يشدون أنفاس البوارى . . رأوني فهرعوا نحوي . . أخذوني إلى أحضانهم وهم يتغنون بعبارات الشوق إلا هو فقد ظل جالسا، تاركا فمه مفتوحا ليتسرب منه الدخان ومن فتحتي منخاره . . شعرت بالغثيان .

***

- ألا تراه . . ؟

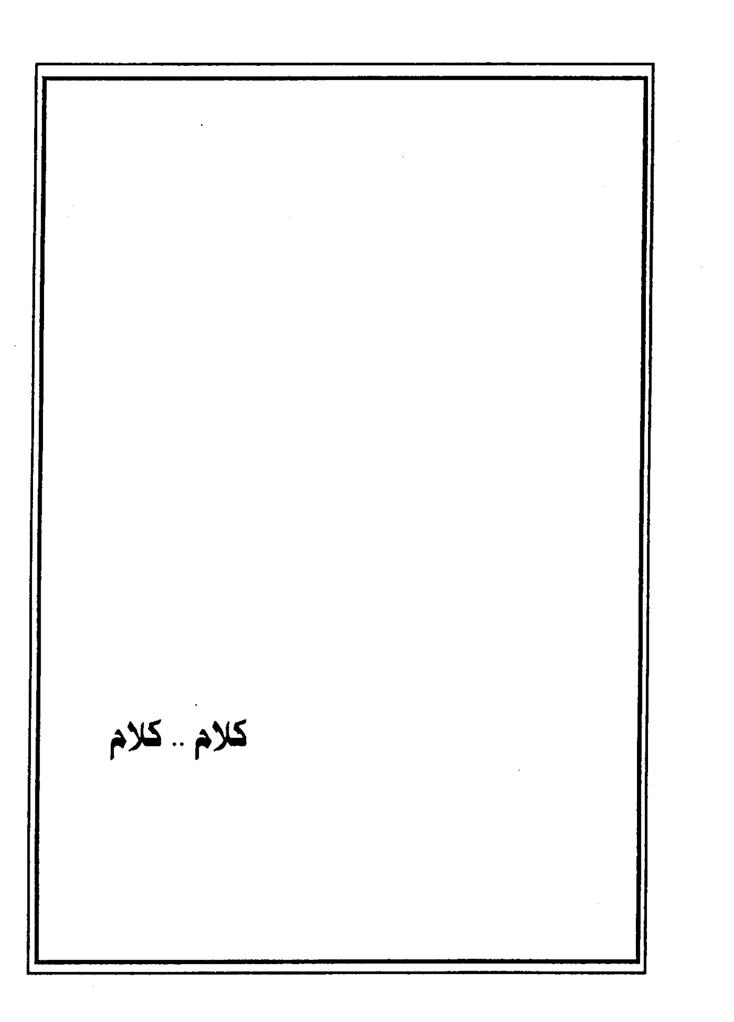
خلصني سؤاله من عتمة ذكرياته الأليمة . . قلت : هه . . ؟ لا . . أبدا .

قال متسائلا في إلحاح : كيف وهو على بعد خطوة منك ؟ !

خبطت كفا بكف وأنا أردد : العجيب أنك تتخيل شيئا غير موجود إطلاقا .

وأطلقت ضحكة أشبه بالبكاء .

أغسطس ١٩٨٣



كلام .. كلام

حضّن بسيارته بجوارها .. دلفت إليها فرحة ، احتضنت كفها أصابع يمناه ، قالت وهي تقبل أنامله .. انتظرتك طويلا .

قال والفرحة تتقافز من عينيه : انتظرتك منذ كنت في رحم الغيب.

قالت وقد أنامت رأسها على كتفه : سنبقى معا .. لن نفترق أبدا .

كان الجو حارا ، خانقا ، والطريق مزدحم بالمركبات، والإشارة الحمراء اللعينة تحتجز صفوفا طويلة منها وراءها، والمحركات تكاد تشتعل.

قالت لما رأت علامات الضيق تكسو وجهه : لا لا يا حبيبي .. "ريلاكس خالص" .. خذ الأمور ببساطة ، فكلها ساعة أو أقل أو حتى أكثر ، فنحن الآن معا ولا يجب أن تتكدر .

افترشت الابتسامة صفحة وجهه . . احتوى كفها . . مرغ شفتيه فيهما

قالت وهي تغرس عينيها في وجهه : أود أن آخذك إليّ . . أن أخبئك بين رموش عيني ، أو في أضلعي، في حشاشة قلبي .

قال : هناك في مدينتنا الأثيرة سآخذك وأجري بك إلى البحر وأجري وأجري، حتى نصير وحدنا ، وهناك ندخل جنتنا .

قالت : تعرف . . كلما انفردت بنفسي أتساءل : كيف أضعت عمري الفائت بعيدة عنك . . إن طعم الحياة جد قد اختلف بعد أن عرفتك، فتمنيت لو عرفتك منذ صرختي الأولى .

ثم غمرت أصابعه بقبلاتها، ثم أنامتها بين رقبتها وكتفها .

انطلقت آلات التنبيه من المركبات خلفه . . انتبه . . ضغطت يمناه دواسة البنزين . .

قالت : ربع ساعة ونكون خارج الكون .

أدار مفتاح المسجل .. انساب صوت "الست" رائقا .. آخاذا

يا حبيبي تعالى وكفاية اللي فاتنا

هو فاتنا يا حبيب الروح شويه .. ؟

انطلقت تغني معها وهي تمرغ وجهها في ذراعه.

* * *

في منتصف الطريق الصحراوي نزل يعالج عُطبا أصاب السيارة .. شمر كميه .. فتح غطاءها الأمامي .. دس رأسه واختفى نصفه فيه .. غطى الشحم والعرق وجهه وكفيه وذراعيه .. وقفت بجواره تجيل النظر فيما حولها .. رمال تمتد إلى المدى ، وقرص ملتهب في كبد السماء يرسل حمما ، يحيل كل شيء إلى أتون متقد .

أحست بالحرارة والرطوبة تخنقانها

قالت : ألم تنته بعد . . ؟

قال : سلي نفسك بأي شيء ، أو أدخلي إلى السيارة لتحتمي بظلها .

السيارات الأخرى تجيء مسرعة، وتجري مسرعة . . لم يلق أصحابها اهتماما بها . . تشير لهم بإبهامها . . لا يأبهون . .

تبصق غيظا .

تلفت حولها آملة أن تلتقط عيناها ظل شجرة أو جدارا قديما . . أي شيء تحتمي به من لفح النار . .

(ها هي سيارة قادمة . . تقدمي نحوها . . لوحي لسائقها . . يا كلاب . . سائقون بلا نظر . . ألا يرون هذا الجمال ليقفوا له . . لينقذوه من هذا التيه وتلك النار

ها هي سيارة مقبلة . . يقودها سائق كهل . . لا يهم . .)

أشارت إليه . . يتمهل .

* * *

مسح وجهه بكم قميصه، وكفه بالفوطة الصفراء ..

الحمد لله ..

أنزل غطاء السيارة هاتفا في فرح :

هاه .. لقد انتهيت، وإن شاء الله سنوصلنا دون متاعب .

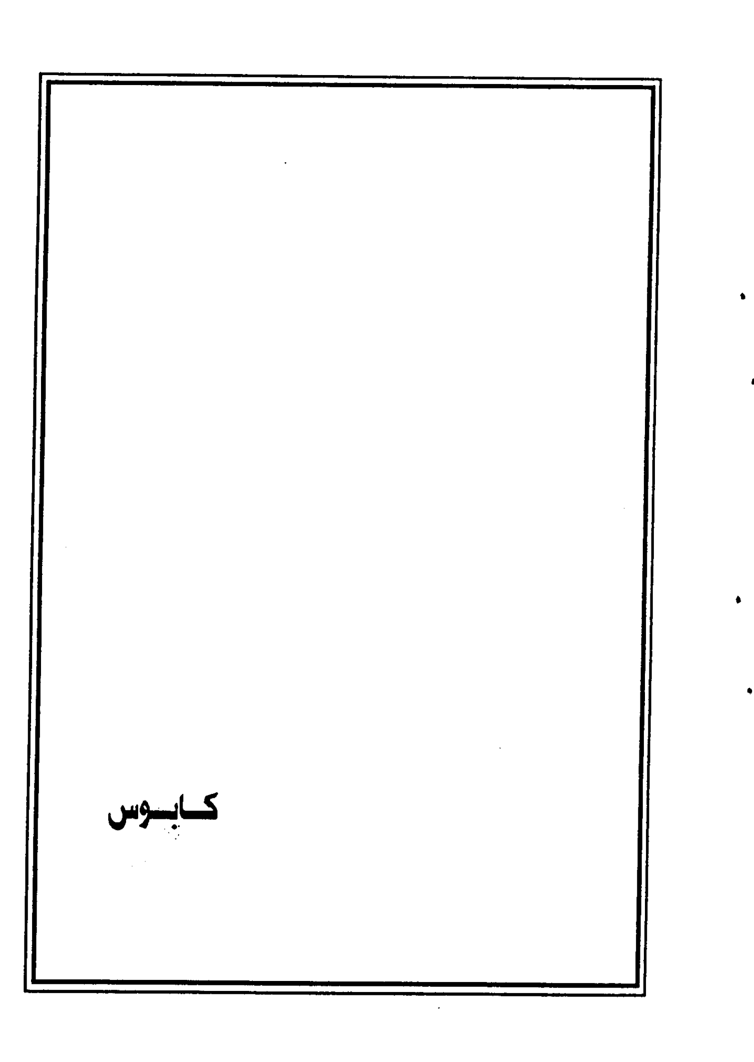
تلفت حوله، أرسل عينيه لمداهما .. فتح باب السيارة ..

أدخل رأسه .. تساءل في حيرة .. أين ذهبت ..؟

لا أحد هنا على الإطلاق .. أذن أين تكون قد ذهبت..؟!!

كانت الشمس آخذة في الأفول، وهو واقف إلى جوار سيارته يضرب أخماسا في أسداس، والسؤال يلح على رأسه، وعيناه تتقافزان فيما حوله .. لا تستقران .

أكتوبر ١٩٨٥


كـابـوس

لم يكد يغمض عينيه حتى انتبه على أنينها .

كان يجلس إلى جوارها بعد أن سقاها شربة ماء ، بللت به ريقها الناشف حطب وشفتيها، هاجمه النعاس فـأغمض عينيه على أكوام رمل تحت أجفانه .. لم يهنأ بساعة نوم منذ أن داهمها المرض وأقعدها .

آ آ .. مم .. م .. م .. آ .. هـ ..

آهـات طويلـة .. قصـيرة .. مكتومـة .. متلاحقـة .. حادة ..

يتألم لألمها ، فتتمتم شفتاه بالدعاء لها ، وعيناه متشبثتان بالسماء : يا رب .

مم .. مم .. آ .. آآآ ..

يهب واقفـا .. يطل عليها قلقـا .. لا يتحرك منها ســوى

عينيها ، تتجول بهما بين أرجاء الحجرة التي صارت كل دنياها .. يجيء لها بالمبولة لتقضي حاجتها .. يدس ذراعيه تحت إبطيها ليرفع نصفها الأعلى ليبدل لها ثيابها، ليغسلها في الليل مع ملابسه .. يسند ظهرها إلى صدره ويطعمها أو يسقيها أو يعطيها الدواء .

تهمس جاهدة : أتعبتك كثيرا .

– لا تقولي ذلك يا أمي .

– لو كانت لي بنت .

– هل قصرت في خدمتك يا أمي ..؟

– كانت تقاسمك هذا العناء .

– غدا تشفين ولا تحتاجين لأحد .

– ومتى يجيء هذا الغد ..؟

– قريب جداً ، فقط الصبر .

جرجر خطوه إلى الحمام ليغمر عينيه في الماء .. نظر وجهه في المرآه .. شهق ملتاعاً لما رأى تورم أجفانه واحمرار عينيه .. أحس برأسه تدور .. تلف .. استند إلى جدار .. تذكر أنها لم تتناول قرص الضغط .. ملأ كوبا بالماء .. أسند رأسها إلى صدره، وضع القرص الصغير على طرف لسانها .. أطبقت شفتاها على حافة الكوب ..

" آه .. لو أنام قليلاً .. ساعة زمن فقط لأتحكم في أطرافي السائبه.

- بالشفاء يا أمي .

مسدت أصابعها المعروقة رأسه، وهي تمتم في وهن له بالدعاء ، ثم سألته : هل ستذهب إلى الجامعة اليوم .. ؟

- محاضرة واحدة وأرجع حالا .

انفلت إلى الدرج وأنا أنظرها .. مسكينة هدها المرض ،

نهش عافيتها، وأذهب نضارتها .. أين هي الآن مما كانت عليه ..؟

قم ياضنايا .. السابعة والنصف الآن .. تأخرت عن ميعادك ..

كل يوم كنت أستيقظ على صوتها العفي الريان، ووضاءة بسمتها التي كانت تنير كل حياتنا .

اغتسل فأجد مائدة الإفطار قد عمرت بالجبن والزبد والمربى وطبق البيض المقلي في السمن البلدي، وكوب الشاي الممزوج بالحليب .. أجرى إلى الدرج متأبطا كتبي، تلاحقني دعواتها .. ربنا معاك، يحميك من كل سوء .

"يا الله .. أين ذهب كل هذا .. صحتها، حيوتها، عافيتها ..؟!

اللهم اشفها واعف عنها يا رب"

***

ساورني القلق والضيق وأنا أنظر إلى ساعتي متوترا . . أكثر من نصف ساعة ضاعت في انتظارها . . يقولون أنه في البلاد الأوروبية يضبطون ساعاتهم على الأتوبيس . . أخيرا جاءت حبلى بركابها . . انحشرت بين الأجساد المتلاحمة . . هاجمتني رائحة العرق الزاعقة وخلوف أفواه نتنه، ودخان لفائف تلتف حول رقبتي تخنقني وتهاجم صدري بضرواة، وسخونة أنفاس ، وجعارة بائع كالفلق تخترق أذني : الدبابيس ١٢ بربع، وخمسة متر أستك بربع، وأربعة حجارة قلم بجنيه و . .

اهتصر جسدي وديست قدماي وانكتمت أنفاسي، وخيوط العرق تنزلق من قفاي إلى ظهري . . نزت كل مسامي على الرغم من برودة الشتاء . .اختلط العرق بالغبار العالق بها فكان الطين الذي سود ياقة قميصي . . ضغطتني الأجساد فتكرمشت . . ساءني ما صار إليه حالي فتجعد وجهي كمدا .

* * *

تتعمد أن تجلس بجواري .. ابتعد .. تقترب .

- أين أنت ..؟

- هاه ..؟

- تتغيب كثيرا .

- ظروف .

- لو تنتظم أضمن لك امتياز .

- آه .. لو ..

- لماذا كل هذا الوجوم ..؟

- ....

أهرب إلى الورق .. سن القلم يجري بغير هوادة فوق الورقة البيضاء .. يسوّدها .. تلاحقني .

- أنا كتبت كل المحاضرات السابقة .

- كويس .

- ما رأيك لو نذاكر معا ..؟

انظرها صامتا .. تسترسل.

- عندي في البيت .

(البنت حلوه وذكية، وقصرهم كبير، تحيطه حديقة رائعة، تطل غرفتها عليها)

- هاه .. ما رأيك ..؟

- أفكر ..

- يا سلام ..

- آآخ .. رأسي .. أحس بصداع .

انفلت خارجا .. أتلفت ورائي .. أهرول .. أجري هربا .. وجدتني في منتصف الكوبري .. طالعتني المئذنتان السامقتان في نهايته .. مازلت أركض .. اقترب من نهاية الكوبري .. لكن ما هذا الزحام عند الجامع ..؟

نعش فوق الأعناق . .عويل وولولة نساء : يا حبيبتي يا غالية . . لماذا رحلت مبكرة . . ؟

انقبض قلبي وملأتني الوساوس . . يترى السؤال في رأسي . . أستعيذ من الشيطان . . يلح السؤال . . من يا ترى . . يا ساتر يا رب . .

وجدتني أجري . . أجري . . أقفز الدرج . . أدس المفتاح في تجويفه . . أزعق ملهوفا . . أمي . . أمي .

حبيب أمك يا ضنايا . . مالك . . ؟

أدس ذراعي تحت إبطيها . . أسحبها نحوي . . أضمها إلى صدري . .

أدسها في قلبي . . أقبلها . . أتحسس وجهها .

تسألني مندهشة : مالك يا حبيبي . . ؟

أنهنه . . أضحك . . أبكي .

تبكي . . ؟!

أنظرها ، فأرى نور وجهها المنزوي .

مالك يا ضنايا . . ؟

أحس لهفتها فتسكنني الراحة .

انفلت خارجا وأنا أطرح سؤالا لا أنتظر إجابته: أسخن لك الشوربة يا امه . . ؟

أغسطس ١٩٨٢

الســـور

في الزحام عاص . . أصبح قطرة في زبد الموج المتلاطم الذي قذفه القطار على شطآن الأرصفة العديدة .

يئن الكتف تحت ثقل المقطف المليء بالزاد . . ألياف النخيل الخشنة حفرت لحم الكتف . . انغرست فيه . . آلمته .

زحف وراء الخلق الزاحف . . مذعورا أجال عينيه في الباب الحديدي الكبير والقضبان والأزرار النحاسية المنطفئة ببدلة العسكري القابع متهالكا بجوار الباب . . سرى الذعر في كيانه فابتلع صرخته، لما رأى السور الحديدي يمتد إلى مالا نهاية . . أيحيط السور بكل المدينة . . ؟

شغله السؤال فراحت عيناه تتنقلان بين الأقدام الزاحفة نحو الباب . . زحف وراءها . . تتأخر اليمنى وتتقدم اليسرى . . تتراجعان . . تتقدم اليسرى . . تتأخر اليمنى . . نظر المقطف

ليخفف من حز الأحبال اللوفية المنغرسة في عظم الكتف . .

يقترب من الشرطي . . سولت له نفسه أن يجري . . أحس بقدميه ترتعشان فاندس بين الموج المتسرب إلى الميدان . .

كل شيء يجري حوله . . أراد أن يستصرخ شرطي المرور القابع في برجه الزجاجي ، فتح فمه عن آخره لكن الصرخة أبت أن تخرج إلى البراح . .

كناطور تسمر وسط الميدان، زعق فيه سائق كاد يدهسه : اتحرك يا طور .

وسّد مقطفه الأرض . . تقرفص بجواره . . بعضه تداخل في بعضه لما رأى صبيا يقترب منه . .

" آه . . من المؤكد أنه ينوي سرقة المقطف" احتواه بين يديه . . حط نصفه الأعلى فوقه . . كاد يصرخ : الحقوني ى ى .

- سلام عليكم .

- . . .

- لا تخف مني . . يمكنني مساعدتك . . أين . . .

- لا لا . . لا أريد مساعدة أحد .

- انت في مدرسة . . ألست كذلك . . ؟

- . . . .

- أنا في الخامسة الابتدائية ، وأنت . . ؟

(أنا . . ؟ لما كنت في الخامسة من عمري علموني أمسك عود السنط لأسوط به ظهر البقرة المعصوبة العينين لما تتوانى في إدارة الساقية المربوطة إليها . . ولما بلغت التاسعة كان العرق ينثال من رأسي إلى عيني وأنا أهوى بفأسي لأشق صدر الأرض قبل أن أرمي إليها البذر)

أحس بدموعه تجري في جوفه فمد يده ليمسح العرق المنثال على وجهه .

- ما رأيك أن يحمل كل واحد منا المقطف من إحدى أذنيه حتى نصل إلى مقصدك . . ؟

وقبل أن يسمع إجابته كانت يمناه قد قبضت على أحد الأذنين.

آه . . يدي

سقط المقطف الثقيل من يده الغضة ، قال وهو يفرك أصابعه : لنتبادل الأذنين .

صرخ غاضبا : ارفع معي لأضعه فوق كتفي.

تحت وطأة الثقل كاد يسقط . . قبل أن يفور الغضب في صدره على المقطف وأمه والعالم كله رأى زحاما شديدا أمام أحد الأفران . . صراخ وزعيق وأيادي تلوّح وأجساد تلاحم وسباب.

تحسست كفه المقطف وتمتمت شفتاه بالدعاء لأمه . . ربنا يخليكي يا امه . .

ولكن . . ماذا سأفعل عندما ينفد الخبز الذي ملأت به المقطف . . ؟

هل سأندس بين هؤلاء . . ؟

لا . . الموت جوعاً خير من هذا .

ثم جرجر القدمين مبتعدا، سأل عن الحارة مقصده . .

قالوا له هنااااااك.

أمام بيت قديم يلفظ آخر أنفاسه وقف . . جعر . .

يافاديديز، يا إبراهيديديم .

بالأحضان أخذوه . . سألوه وسألوه عن آبائهم وأمهاتهم والأخوات . . عن الدروب والنخيل والأشجار والصحاب .

حط الجسد المكدود على الأرض . . تمدد

- الشاي يا أسعد .

لكن الفتى كان قد أغمض العينين وسافر إلى البعيد .

- مسكين . . هده السفر .

- كثر خيره .

* * *

عندما عادت الشمس من رحلتها الأبدية بين نصفي الكرة نطر الجسد فانتصب واقفا . . مع رفاقه راح يجوب شوارع المدينة . . تدور رأسه وتدور مع البنايات العالية ونوافذ العرض اللامعة والسيارات المسرعة وأسفلت الطريق الأسود وأجساد البنات السمهرية و . .

حاسب يا أسعد .

صرخ فايز لما رأى سيارة مجنونة كادت تأكل صاحبه . . سقط مغشيا عليه . . بللوا رأسه ورشوا وجهه بالماء ثم أسقوه جرعتين ، ولما أفاق تفل في عبه وفرك عينيه .

- خد بالك يا بن الحلال والا ضعت في غمضة عين .

* * *

ناحية الغرب بدأ القرص القاني ينحدر . . أحس بالتعب يسري في جسده فجرجر قدميه إلى الحارة، لما تمدد على ظهره سرت البرودة في كيانه، فوق صفحة السماء سرحت عيناه تبحثان عن القمر الذي كان يضيء ليالي القرية المظلمة . . عن النجوم التي كان يسرح معها شطرا من الليل قبل أن ينجذب إلى جب النوم السحيق ، افتقدها فتساءل :

هل أكلت المدينة كواكبها . . ؟

* * *

اعتادت قدماه الطرقات فحل عقدة المنديل المربوط تحت إبطه الأيسر، ناول زميله ما كان يحويه، فاستكان الصندوق الصغير بيده وفرشاة بيده الأخرى، بينما اندس الكرسي الصغير بين ذراعه وجنبه الأيسر . . حاول أن تنسجم دقات الفرشاة على الصندوق مع كلمه ورنيشن ورنيشن التي يرددها بين الحين والحين.

تبلعه المقاهي وتلفظه، فتلتقطه الأرصفة المتكسرة.

- لو سمحت يا انت.

التفت إليها . . صبية صغيرة لم تعد العاشرة . . استراح لبراءة العينين

- تعالى لتمسح الأحذية بالبيت .

نظرها مرتابا، وقبل أن ينفلت الكلام من بين شفتيه قالت:

لا تخف . . تعال.

بخطـوات مـترددة تبعهـا . . تقـاطعت في رأســه علامـات الاستفهام . . ماذا لو . .

هل . . وما العمل . . تباطأ خطوه ، على وجهه قرأت حيرتـه . . سألته : أخائف أنت . . ؟

- أنا . . لا . . أبدا .

على زر بقرب الباب ضغطت . . دغدغ صوت البلبل طبلتي

الأذنـين . . شـدت الثريـات والتمـاثيل والمقـاعد المذهبـة والجدران المنقوشـة عينيـه . . غـاصت قدمـاه في السـجاجيد فدارت رأسـه فاستند إلى جدار، سرت برودة المكيـف إلى مـا تحت الجلد، فمسحت كفه المعروقة قطرات العرق لما تراءى لـه شريط أرضهم وهو يخطو إليها فوق المدق المترب .

جاءت له بكوم الأحذية وكومتها أمامه . . قلب فيها العينين ومصمص الشفتين . . تداخلت الألوان والكعوب الرفيعة الطويلة والمستديرة والمكعبة ، الأقدام البيضاء المشربة بالحمرة والمشققة المكسوة بالطين .

– أنا خارجة يا سعدية . . لا تنس أن تطعمي جيمي . .

انتزعه صوتها العذب من سرحته، انتظر واقفا لما حف به ذيل فستانها

(يااااه . . سبحان الخلاق . .)

- لماذا تنظر إليّ هكذا . . ؟

- هه . . أبدا .

- أوه . . يبدو أنك . .

ومطت شفتها متقززة

بالأمس التقطت أذناي من مذياع المقهى أن سطح القمر قطعة من الصخر مليء بالحفر والندوب مثل شوارع المدينة، وقتها لم أصدق.

استدارت . . تتباعد طرقعات الكعبين على الأرض . .

جاءت الفرشة وراحت فوق جلود الأحذية، وتأرجح السؤال بين جدران رأسه : يا ترى من هذا الجيمي الذي أوصت الخادمة عليه . . ؟ لابد أنه ابنها . . هل هو أيضا مثلها كالقمر . . ؟ لكن ما لي أنا والقمر وجيمي . . ؟

المهم أن انتهي من هذه الأحذية .

– متى تنتهي . . ؟

عرفها من صوتها، فانزلق السؤال سهلا من بين شفتيه:

لماذا كل هذه العجلة . . ؟

قبالته جلست قائلة : لا تغضب .

تفرس الوجه فرأى فيه لون مياه النهر الطامي . . اطمأن لها فسألها :

– أخبريني . . هل جيمي قمر مثل أمه . . ؟

كاد أن يقوم ويضرب صدغيها حتى تكف عن الضحك . . لم يستطع فسألها غاضبا : لم كل هذا الضحك . . ؟ تحشمي .

أحست بالخجل فهمست قائلة وهي تحاول أن تمسك أطراف أصابعه : تعال.

قطرها إلى المطبخ . . لولا خوفه من تشبيهه بالنساء لجرى . . لما رأت الذعر . احتل قسمات وجهه قالت : لا تخف .

اطمأن فراح يتأمل وقفته الشامخة أمام الإناء المليء باللحم المسلوق :

قالت وكأنها قرأت ما يجول في رأسه : هذا غير اللبن .

***

على صدر أمه الجاف الخشن كان يحط رأسه . . سألها ذات مرة : لماذا لا نملك سوى هذا الشريط الضيق من الأرض، ولماذا نعمل كأجراء عند الغير طوال العام، ولماذا نشرب الشاي بدون لبن ونبيع اللبن للغير .

قالت :بعد قليل يأتي أبوك فاسأله .

أبي . . كانت الدنيا لا تسعه لما كان يرجع إلى البيت بنصف كيلو اللحم ، تتلقفينه والفرحة تكسو قلبك وأنت مسرعة إلى الكانون، لتنشري رائحة الزفر في حوش البيت، وانتظر مع اخوتي رجوع أبي من الأرض لنتحلق سويا الطبلية متلهفين أن تمد يدك

إلينا بأنصبتنا .

- ماذا يا أسعد .. أين ذهبت ..؟

- أخبريني يا سعدية .. ماذا تعمل سيدتك ..؟

- تخرج كل يوم بعد أن يكاد الليل ينتصف وتعود قبل شروق الشمس .

- ....

- ما رأيك لو طلبت منك أن تتناول معي الغداء ..؟ منذ جئت إلى هنا من بلدتنا وأنا آكل وحدي ..

في عينيه رأت أخاها .. جاءوا بها إلى هنا فانتزعوه منها .. من شقاوته الصغيرة .. من الجري وراءه إلى الترعة .. من سقي نخلاتها الصغيرة الطارحة بجوار النخلة الكبيرة في حوش البيت .. من سماع حواديت جدتها بعد الغروب .

- انت مثل أخي .. أليس كذلك ..؟

صاح فرحاً . . انت كل اخوتي

كزقزقة عصفور تحرر من أسره قالت : تعال يا أسعد .

أخذته من يده . . أجلسته قبالتها . .

أمسك برغيفه . . أمسكت برغيفها . . قطع لقمته، قطعت لقمتها . . امتدت اليدان الصغيرتان إلى نفس الطبق . . قال لها ضاحكا كما كان يقول لأخته : لأ ما "تحفيش" ، . أرجعت الجدران صدى ضحكاتهما .

غسل يديه . .

هل ستنصرف . . ؟

سألته والدمع يترقرق في العينين .

***

التقطه أسفلت الطريق .

لو سمحت يا بني . . خذ بيدي .

التفت فالتقطت عيناه شيخا يمشي على ثلاث . . عبر به نهر الشارع العريض . . همدت فرحته الوليده لما أطلت عليه العينان الكليلتان من بين تجاعيد سنوات الشقاء، وهبر اللحم المكوم في إناء الكلب، والسجاجيد التي انغرست فيها قدماه، وطنين الذباب المحطوط على وجوه الأطفال هناك في قريته والسور الحديدي الذي يسيج المدينة والصفرة الباهتة التي تغطي وجه سعديه . .وجه أختي مريم يطل عليَّ من بعيد . . تمسح دمعي المنسال على خدي . . تأخذ رأسي بين راحتيها . . تسري الراحة في كياني . . سويا لعبنا . . جرينا . . تخاصمنا . . نشعر أن الدنيا ضاقت . . صارت خرم إبره ، فنجري إلى بعضنا . . تُرى ماذا تفعل الآن . . هل تفكر في أخيها الواقع تحت سياط الغربة . . كم أحن إليها . . إلى وجه أمي الحنون ، إلى مياه ترعتنا العريضة ، إلى جلسة الونسة أمام الدور . . إلى النومة الهنيأة فوق الجرن . . يا اااه . . متى أرجع لأعيش كل ذلك ثانية، ولكن هل يمكن أن أعود . . ؟

متى . . ؟

الآن . . هل يمكن ذلك ؟

يا ولد . . تعال .

جرجر إليه الخطو . . اقتعد الرصيف . . راحت الفرشاة وجاءت فوق الحذاء بغير حماس . .اختلطت الأصوات المتسربة من داخل المقهى . . كش ملك . . شيش جوهار . .وعندك كما واحدة ساده واتنين ميزه.

داخل تلافيف الرأس ألح السؤال . . الآن . . هل يمكن الآن . . ؟

تراءى له السور الحديدي ووجه العسكري الصارم وبندقيته والأصوات المختلطة ما زالت تتعالى داخل المقهى . . دو . . يك بس. . مات الملك .

تمتم باكياً . .ليته الملك فقط . .ليته الملك فقط .

يوليو ١٩٨٠

و .. العربة تسير

التحمت كل الأشياء بعضها .. الحر شديد والرطوبة تزهق الأرواح ..

نزت المسام العرق .. تدحرجت خيوطه من الأقفية إلى بقية الأجساد ..

بللها فالتصقت بها الملابس الداخلية .. رائحة العرق الفالته من تحت الآباط تنتشر في سماء العربة زاعقة ، مكتومة .

زعق السائق : ادخلوا خلوني أشوف المراية .. كقرد عجوز فر من جبلاية القرود اعتلى المحصل ظهور المقاعد ، يقفز من أحدها للآخر .. عيناه تتقافزان بين وجوه الركاب .. يجعر : تذاكر .. تذاكر .

صرخت سيده حامل في ساعاتها الأخيرة .. يو و و و ه .. انتفخت عروق رقبتها وغطى العرق وجهها وكفيها وكل جسدها

.. اعترى الركاب الخوف عليها .. زعقوا مضطربين : افتحوا الشبابيك .. حرام .. هاتولها شوية هوا .

تخلى أحد الجالسين عن مكانه .. أجلسوها .

- مددي يا ختي .

قالتها المرأة البدينة التي شقت طريقها إليها ، قفزت المرأة الصغيرة التي كانت تجلس بجوارها واقفة ..

يوووه ..

يتمطى صراخها وهي تطرح نصفها الأعلى على باقي المقعد ..

- سلامتك يا ختي .. ربنا يمتعك بالسلامة .

- حالا يا ختي تولدي .

- قُطع الخلف وسنينه .

أبعدت المرأة البدينة بين ساقيها وجلست بينهما .

- اللي معاه ملاية واللا فوطة يجيبها .

- وسعوا شويه ، خللوا الهوا يخش لها .

اختلطت كل الأشياء ببعضها .. انتشرت رائحة خانقة، مكتومة .. امتزجت بدخان اللفائف وخلوف أفواه نتنها الجوع .

- عينيك منك له وخللوا عندكو شويه .

- طيب منين يا ختي يجيبوه .. ؟

تذاكر .. تذاكر .

على محطاتها تقف .. ينزل اثنان ويصعد خمسة .. ثلاثة ويصعد سبعة .. تنطلق .. تقف .

أحس راكب بيد تعبث في جيبه .. أسرعت أصابعه لتقبض عليها ، لكن اليد المدربة زاغت منها .. تحسس نقوده فأحس ببعض الراحة .. تلصصت عيناه فيمن حوله .. ارتجف .. بلل العرق فروة رأسه وأحس بشعره يقف لما التقطتا رجلا يلتصق بمؤخرة امرأة ، يحرك أسفله ، يلهث ككلب ، غامت عيناها

منتشية ، برقت عيناه ، لعق شفتيه . . أزاحه . . أخذ مكانه . . تخلت أصابعه عن نقوده . . تمطى صراخ المرأة الحامل . . آآ آآآه .

- أبوه يا ختي احزقي .

جعر المحصل معلنا عن نفسه : تذاكر .

غامت عيناه . . ارتجف أسفله . .

عشر مناديل معطره بربع جنيه ، محفظة بلاستيك بربع جنيه

يزعق ملتاثا وأصابعه تفتش جيوبه : فلوسي . . هجم على أحدهم . . غرس أظافره في عنقه . . فلوسي يا حرامي يابن الكلب .

استل مديته من جيبه . . غرس نصلها في بطنه . . انبثق الدم حارا ، صرخ وقد ضاعت من عينيه المرائي . . أخ خ .

تدحرج المولود . . خرجت رأسه من مكمنها فانسل الجسد

هشـا ، طريـا .. التقطـت عينـاه نـورا ، وأوأ صارخـاً .. وااء .. وااء التقطته يداها الخبيرتان .. ضمته إلى صدرها .. قبلته .

تدحرج الرجل وكفه فوق جرحه .. تمرغ في دمه .

سألت بنت مفعوصة لغمطت شفتيها بلون أحمر كالدم وهي تطوح خصلات شعرها المجنون خلف ظهرها ممسكة بذيل فستانها :

هو الدم بيطلع في الغسيل ..؟

قالت واحدة وهي تجفف وجه الوالده : اقطعوا له الخلاص .

زعق راكب حاول الا ينظر للجثة الساجية على أرضية العربة : إكرام الميت دفنه يا ناس .

سألت المرأة الحاملة للمولود : حتسموه إيه ..؟

أجاب راكب ساخرا : أتوبيس

كركع البعض ضاحكا .. هأ هأ ها ... هاي

قال آخر متأففا : على القرافة يا اسطى .

اغتاظ السائق من صيغة الأمر المتعالية . . أبطل المحرك . . زعق غاضبا :

أنا ماباخدش أوامر من حد .

- حرام عليك يا اسطى . . خللي عندك مروة .

قالت امرأة ناهد ، حلوة الوجه : معلهش يا اسطى . . اطلع عشان خاطري .

انغرست عيناه في النهر المحشور بين نهديها ثم قال متنهدا : عشان خاطرك انت بس يا جميل .

- مالك يا عم . . ؟ فضفض معانا بدل ما تروح فيها .

نظره مليا قبل أن تنفرج شفتاه قائلا : تصور شهر كامل وأنا دايخ بين المصالح ، طالبين مني شهادات إدارية بأني مصري، وإني حسن السير والسلوك وإني على قيد الحياة وصورتين من البطاقة . . تصور . . ؟!

طيب ليه كل ده . . ما تاخدوا حق الدمغات . . خدوا اللي تاخدوه بس بلاش الدوخة دي . . لكن إزاي يزعلوا أجدادنا الفراعنة وما يطبقوش اللي كانوا بيطلبوه، والأدهى والأمر أنشأوا إدارة جديدة مهمتها تبسيط الإجراءات .

زعق أحدهم قلقا : المحطة الجاية يا اسطى .

- تذاكر . . تذاكر .

ولاعة ياباني بنص جنيه . . خمس أقلام بنص جنيه . . سته متر أستك بربع جنيه

ولاعة إيه وأمواس إيه يا عم . . دا احنا دي لوقت بنتعامل في الحاجات الكبيرة . . في المصانع والفنادق والطرق والنور ، وبكره حنتعامل في الهرم وأبو الهول ، وآآآه يا خوفي عليك يا مية النيل .

- فال الله ولا فالك .

- يا عم بلا فال بلا خل ، ماهي كل حاجة بتتبـــاع أهه قدام عينينا واحنا ساكتين . .

ما هي الدول الرأسمالية أهه بتبيع حق انتفاع لسنين معينه ، مش هبل زينا .

فجأة أوقف السائق العربة ، أبطل المحرك . . زعق في الركاب : ياللا يا أفندية . . ياللا يا حضرات ، اتكلوا على الله ، شوفوا لكم عربية تانية، العربية عطلت .

– ما كان الموتور شغال وانت اللي بطلته.

دفعة بقوة، ارتطم جسده بأرضية العربة . . التصق بالجسد الساجي . . أطل الذعر من أعين الركاب . . انتشر بينهم الصمت . . تدحرجت أقدامهم على سلم العربة . .

تمتم أحدهم وهو يتلفت حوله خائفا : لابد أن نشجب الحادث ونشكو السائق للمسئولين .

نظره أحدهم شذرا ، ثم جرجر خطوه ، متأبطا غيظه

مارس ١٩٨٥

فهرس